
جيرار لـولاش
(جمال بدومة سابقا)
دار الوالدة للنشر
كيف تصبح
فرنسيا
في 5 أيام
(ومن دون معلم)
تخييل ذاتي

جمال بدومة

كيف تصبح فرنسيا في 5 أيام

(ومن دون معلم)

تخييل ذاتي

دار الوالدة للنشر

تصميم الغلاف: أمين جلايدي

دار الوالدة للنشر

الإيداع القانوني:

2011 MO 0584

تنبيه للقارئ

"جيرار لولاش شخصية خيالية، أنا اخترعتها"

ج. بدومة

تنبيه للقارئ الغبي

"جمال بدومة شخصية واقعية، أنا فضحتها"

ج. لولاش

1
كنت أكنس أرصفة القطار

"لكل واحد باريسه الأولى وباريسه الأخيرة. اللهم أخرج باريسنا على خير"
ج. لولاش

مضت أربعة أعوام كاملة وأنا في باريس. كلّ عام عليّ أن أتدبّر أمري لأعيش على نحو جديد. منذ جئت إلى هنا وأنا أحيا بشكل مؤقت: سكن مؤقت عمل مؤقت، بطاقة إقامة مؤقتة، دراسة مؤقتة، وأحلام مؤقتة في بلاد مؤقتة... صرت كائنا مؤقتا وموقوتا، قد أنفجر في أي لحظة. كل يوم يمضي يضيف غيمة أخرى في سماء المستقبل. عندما يسودّ العالم في رأسي، يحدث أن أفكر في الانتحار. مثل كل المستثمرين الكبار في شركة الكبرياء الذين يرفضون رؤية إفلاسهم يقترب. فكرت أن أرتمي في نهر السين، ستكون ميتة شاعرية يتحدث عنها الناس والصحف والأصدقاء. ميتة تليق بي... أنا المشتعل حزنا وغضبا، ليس أفضل من نهر كي يطفئ جثتي!

منذ أربعة أعوام وأنا أتدبر أمري... في العام الأول عملت كنّاسا. كنت أنظف أرصفة القطار في محطة شمال غرب باريس تسمى أولناي- سو- بوا. كنت غير راض عن حقارة العمل: أن تقضي عشرين عاما من عمرك على طاولات الدرس لكي تنتهي كناسا في بلاد بعيدة، أمر ظننته

يقع في الروايات والأفلام فقط! لم أكن لأتصور أن اللعنة التي حولت طوما في "*خفة الكائن غير المحتملة*" من طبيب مرموق إلى مسّاح نوافذ، قد تصيبني ذات يوم. لكنّ طوما شجاع، اختار عملا حقيرا من أجل موقف نبيل. بطل رواية كونديرا فضح نظاما سياسيا فاسدا، لذلك جرده الشيوعيون من وزرته البيضاء ومجساته ومباضعه، فصار يلمّع زجاج النوافذ في مدينة صغيرة. أما أنا فمجرّد جبان سخيف، لم أفضح في حياتي أحدا، ماعدا أخي الأكبر الذي كنت أشي بمغامراته إلى أمي كل مرة رفض أن يصحبني معه!

تقع محطة أولناي - سو- بوا في الطريق إلى مطار شارل دوغول. كل القطارات الذاهبة أو القادمة من المطار تمرّ من هناك. تقف هنيهات لينزل ركاب ويصعد آخرون. لذلك كنت أحكم تنكري قبل أن أبدأ العمل، مخافة أن يلمحني أحد الشامتين. كلّ صباح، أضع فوق رأسي قبعة نايك ونظّارات شمْسية عريضة، وقفّازات مطاطية زرقاء. أحمل المكنسة وأشرع في ممارسة ساديتي على نفايات الرصيف. كلّما أحكمت تنكري، أصبح غير مكترث بنظرات الفضوليين. أستيقظ باكرا جدا. الرابعة والنصف صباحا أكون في الحافلة رقم 297 الذاهبة في اتجاه أنْطوني. أكمل نومي في المقعد، متمتعا بالدفء الذي يسود الحافلة. بمجرد ما أصعد أغلق عيني. أعرف أن النوم سوف يصبح مستحيلا بعد عشر دقائق. لأن عصابة من العمال ستصعد وتقلب صمت الحافلة إلى صخب لايطاق. يتحدثون فيما بينهم بصوت مرتفع ويضحكون. لا أعرف وجهتهم ولا لماذا يضحكون، لكنني متأكد أن عملهم أكثر وضاعة من عملي. أيديهم وملامحهم والأكياس التافهة التي يحملون تقول ذلك. معظمهم هنود أو سيريلانكيون. تشي بذلك بشرتهم المميزة. ليسوا سودا ولا بيضا ولا

سمرا ولا صفرا ولا حمرا... بشرتهم زرقاء. لا أعرف لماذا لم يفكر أحد في تسميتهم بالهنود الزرق. أعترف أن الهنود خذلوني. كنت أحسب أن نسائهن جميلات، أو معظمهن على الأقل. لكنني اكتشفت أنّ الهنديات الجميلات موجودات في أفلام الانتقام الطويلة فحسب. معظم من صادفت فيِ الحياة على قدر متواضع من الجمال إن لم يكنّ ذميمات. يتدثرن بملاءات ترصّعها زهور ونجوم ملونة ويضعن نقطة حمراء فوق الجبهة، ما يعني أنهن متزوجات. كل الهنديات يضعن بين الحواجب نقطة حمراء ويجررن عصابة أطفال. لذلك لا تستغرب إذا سمعت أن عددهم يناهز المليار. معظمهم يعيش هنا بلا أوراق إقامة ولا يتحدث كلمة واحدة بالفرنسية، ما عدا موسيو وبونجور وسيلفوبلي... لذلك يحترفون مهنا بسيطة، بغير قليل من العبقرية: يسطون مثلا على عربة لحمل المشتريات من أمام أحد السوبرمارشيات، يحمّلونها بالذرة أو حبات البلّوط التي يسطوون عليها أيضا في حقل أوغابة قريبة، ثم يشعلون نارا على العربة ويقفون عند مداخل محطات المترو ويشرعون في شيّ حبّات البلوط أو الذرة أمام الملأ ليثيروا شهية العابرين. متربصين بكل من تقذفه عربة مترو. الهنود يتاجرون أيضا في لعب الأطفال وبّوستيرات المشاهير وفي الورود... معظم باعة الورد المتجولين في باريس من أصول هندية. يحملون باقة ملوّنة ويجوبون الأحياء السياحية والمقاهي والعلب الليلية. يتصيّد بائع الورد ضحاياه بمهارة مدهشة. كل رجل يرافق امرأة هو زبون محتمل. لا يهمّ إذا ما كانت المرأة أخته أو أمه أوجدته. المشكلة أنهم يلحّون عليك بشكل يحرجك. يحرّك كبرياءك فتمسك الوردة لتضعها في يد صديقتك. عندها تبدأ المزايدات: إذا أعطيته أورو يطلب اثنين. إذا أعطيته اثنين يطلب ثلاثة... وهكذا. الأوغاد. بوردة واحدة يضعون

الرجل بين الأشواك ويشرعون في ابتزازه. لأنهم يدركون جيّدا أن كرمه محط اختبار أمام صديقته. أحيانا تصل بهم الوقاحة حدّ عرض باقاتهم على شابين يتجولان معا، يمدّ نحوهما الوردة ونظرة ماكرة في عينيه. تلك طريقتهم، على ما يبدو، في الانتقام من "الآخرين" الذين يتمتعون بوقتهم في المقاهي والمطاعم والشوارع السياحية.

في الخامسة وثلاث وعشرين دقيقة بالضبط، أركب القطار B من محطة أنطوني في اتجاه أولناي- سو- بوا. الوجوه نفسها ترافقني كل صباح. والتعب نفسه يمرح فوق هذه الوجوه. أسطو على أربعة مقاعد فارغة وأتمدّد. في السادسة صباحا، تجدني في بذلتي الزرقاء بقفّازاتي وقبّعتي ونظاراتي الشمسية، مدججا بمكنسة وكيس بلاستيكي أسود، جاهزا لمطاردة نفايات المحطة حتى الساعة الواحدة بعد الزوال، موعد انصرافي... بعد شهرين كاملين من الكنس والاستيقاظ المبكر والنوم فوق مقاعد القطار والاستماع إلى أحاديث العمّال السوريالية، تمكنت من جمع مبلغ محترم. لكنني بدّدته في أسبوعين. تخيّلتني يابانيا في باريس فاستعرت عدسة تصوير ورحت أتجول بين مآثر العاصمة... ثم وجدتني من جديد على الرصيف.

في السنة الموالية انتفضت. قلت إنني لم أجئ إلى هنا لكي أهدي للتشرد سنوات أخرى من عمري. لذلك قررت أن أخصّص وقتي كله للدراسة. الدبلوم الذي شرعت في تهييئه كان يستدعي حضورا يوميا وأسفارا مستمرة. اقترضت مالا كي لا تغرق بي المركب قبل الوصول إلى نهاية السنة. الدراسة متعبة، محاضرات طوال اليوم. من التاسعة صباحا حتى السادسة والنصف مساء. جبل هائل من الدروس والواجبات. وستيفانيت، مديرتنا الجديدة، تقطّب جبينها باستمرار. تبدو شريرة كمعلمة أطفال في رسوم متحركة. يكتمل المشهد عندما يسقط المطر ونكون في

إحدى الخرجات الدراسية وهي تتقدمنا بمعطفها الشتوي الطويل وخطاها الصارمة شاهرة مظريتها السوداء، بينما نحن وراءها نتعثر في الوحل، تبللنا السماء مثل تلاميذ أيتام. ستيفانيت طيّبة في حقيقة الأمر. تشبه ملكة "بلاد العجائب" كما تخيّلها لويس كارول، لا تكفّ عن الشتم والتهديد لأتفه الأسباب، لكنها لا تنفذ تهديداتها أبدا. كان عليّ أن أظل يقظا طوال العام لكي لا أجد نفسي مطرودا من الفصل، كان عليّ أن أتدبر أمري... أخيرا، بعد شهور من الكدّ والدروس والشتائم، حصلت على دبلوم التخرج، شهادة ثمينة عليها توقيع رئيس جامعة السوربون... دبلوم رهيب تتويجا لعام كامل من الإرهاب!

بعد تلك الأعوام الدراسية الخطيرة، انتفخ رأسي وصرت طاووسا بلا ريش. اعتقدت أنني إذا ما قرّرت أن ألملم حقائبي وأعود إلى البلاد، لاشك أن زلزالا سوف يقلب الحياة الثقافية المغربية رأسا على عقب، تماما كما انقلبت الحياة السياسية في المغرب سنة 1995 عندما عاد الزعيم محمد الفقيه البصري بعد سنوات من النفي. وإذا ما أرادت جماعة من الأصدقاء الاحتفاء بعودتي في مسرح محمد الخامس، لن أكون متكبّرا وأرفض... هذا طبعا، إذا ما قبلت الرجوع أصلا!

قبلت الرجوع ولم يحتفل بي أحد. بعد شهور من الصعود والهبوط في مكاتب المسؤولين، وبعد شهور من الهواتف والمقاهي والمواعيد المخلوفة، اكتشفت أن الدبلوم الذي أحمل في محفظتي كقنبلة ذرية لا يخيف أحدا في المغرب. انتهيت بأن تبوّلت على الشهادة المرعبة وارتحت. شعرت كما لو أنني أستيقظ من كابوس طويل. لكنّني لن أذهب أمام البرلمان لأعتصم كي يشمت فيّ الأوغاد. هذه البلاد التي أمدّ لها خدّي لكي أقبّلها فتصفعني ليست بلادي. إنها "بلادهم". سوف أعود إلى باريس...

2
شريط وردي طويل

"في هذا العصر، إذا كانت لديك
أحلام، اصنع منها شريطا ورديا
طويلا، ثم ضعه في المرحاض كي
تمسح به مؤخرتك كل مرة تدخل"

ج. لولاش

باريس مدينة جميلة جدا، لكنها قاسية. عندما يأتي شتنبر تبكي السماء بلا توقف. ونعود نحن الغرباء لنفتش لرؤوسنا عن وسادة. ولوسادتنا عن سرير. ولسريرنا عن بيت. لأن الليل هنا ابن كلب. لا يرحم. إذا لم تحسن التصدي لضرباته قد يرديك قتيلا كما يفعل بالعشرات ممّن لا يملكون مأوى قارا. أولئك الذين لا يضيع الفرنسيون أكثر من ثلاثة حروف في تسميتهم: SDF (بلا مأوى قار).

عدت إلى باريس بعد أن طردت من رأسي فكرة البحث عن عمل "لكي أخدم بلادي"... لكم تبدو العبارة مضحكة من قمة اليأس! أبلاد هي حقا أم كعكة؟! أيّ بلاد هذه الغنيمة التي تتقاسمها عصابة أشرار؟ وأي شعب هذا القطيع من بنات آوى الذي يفترس بعضه البعض؟!

ها نفذت بجلدي، لكن إلى أين أذهب؟ أين أنام والمدينة تتحول في الليل إلى وحش أسود بملايين العيون؟!

لحسن الحظ، كنت قد رتبت كل شيء مع كارول صديقتي، قبل الذهاب إلى المغرب. كارول فرنسية في الثلاثين، **شقراء** وتحبني كثيرا. أنا أكن لها شعورا ملتبسا، لكنني لا أعتقد أنني أحبها. الحب هو أن تدق في صدرك طبول ونواقيس، هكذا اعتبرته دائما. كارول جميلة ووديعة وتستحق كل خير. حلمها أن نسكن معا، كما يفعل العشاق هنا ليمنحوا لعواطفهم شكلا اجتماعيا. حلمي أنا أن أظل حرا طليقا خارج كل الأقفاص، خصوصا الذهبية. لكنني مجبر على التنازل عنه كما تنازلت عن أحلام كثيرة. في هذا العصر إذا كانت لديك أحلام، إصنع منها شريطا ورديا طويلا وضعه في المرحاض لكي تنظف به مؤخرتك كل مرة تقضي حاجتك. أنا أصبحت إبنا لهذا العصر، واقعيا أكثر من سطل قمامة. حتى الشعر الذي كنت أكتب قبل سنوات، شفيت منه تماما والحمد لله، منذ اكتشفت أن الحياة مجرد قصيدة عمودية ركيكة.

كارول تقطن في بورط ديطالي جنوب شرق باريس. غير بعيد عن الحي الصيني الممتلئ عن آخره بالآسيويين ذوي النظرات الحذرة والعيون الضيقة والكلام الذي يشبه ارتطام أوان تسقط في المطبخ. لكي تصل إلى البيت عليك أن تأخذ المترو رقم 7 في اتجاه بلدية إيفري. عليّ أن أكون حذرا كي لا أذهب في الاتجاه الخطإ، هذه المرة أيضا. لأن الخط رقم7 يتفرع في محطة ميزون بلانش إلى اتجاهين. وكثيرا ما أكون مستغرقا في القراءة أو التفكير، بأشياء مقلقة في الغالب، فلا أنتبه إلا على صوت سائق المترو وهو يعلن آخر محطة في الرحلة: فيل جويف

(المدينة اليهودية). حينها يكون عليّ أن أعود أدراجي إلى ميزون بلانش. عندما آخذ الاتجاه الصحيح، أنزل في محطة بورط ديطالي. أعبر شارع إيطاليا الطويل، وأدور في الزنقة الثانية على اليمين. أتوقف في 15 شارع كايّو (هذه ليست دعوة للزيارة!). مفاتيح البيت في جيبي. أخذتها قبل أن أذهب إلى المغرب. كارول سلمتني إياها كي يكون لديها أمل في عودتي، وأنا قبلت لكي أؤمن سقفا في باريس، إذا ما خابت رحلتي إلى البلاد... وحسنا فعلت!

ما يشجعني على الذهاب إلى هذا البيت- بالإضافة إلى كوني لا أملك خيارا آخر- هو أن كارول لا تأتي إليه كل يوم. لأنها مطالبة بالإعتناء بابنها عدة مرات في الأسبوع. أجل كارول لها طفل صغير وجميل إسمه كيفين. عمره خمس سنوات. أشقر مثل أمه، وهادئ. أبوه إسمه برينو. لم أره أبدا. يبدو أن الأمور بينه وبين كارول وصلت إلى نقطة اللاعودة. هما مفترقان عمليا، لكنهما مضطران للتعايش في انتظار أن تنطق المحكمة بالطلاق. الطلاق هنا مسألة معقّدة. قد يستغرق شهورا أو سنوات. ثمة إجراءات شتّى ينبغي الحسم فيها قبل أن يذهب كل واحد إلى حال سبيله: الأطفال، النفقة، الممتلكات، التصريح الضريبي...إلخ. كارول وبرينو ينتظران النطق بالطلاق منذ أكثر من ستة أشهر. في الحقيقة، أنا من ينتظر ذلك، لأنه عندها فقط باستطاعتي أن أتزوجها وأحصل على بطاقة إقامة دائمة ثم على جواز سفر أحمر وأطوي صفحة المغرب إلى الأبد!

حطتني طائرة الخطوط الملكية المغربية في مطار أورلي. ركبت الحافلة رقم 183 في اتجاه بورط دوشوازي. في الرابعة بعد الزوال

بتوقيت فرنسا، كنت في البيت آخذ حمّاما على إيقاعات أغنية سخيفة لهيلين سيغارا. كنت متعبا للغاية. لأنني لم أنم ليلة أمس. رأسي كانت على الوسادة، فيما عقلي يحلق بين غمامات رمادية. لم أكف عن التفكير في المجهول الذي ألقيت فيه نفسي بعد أن اتخذت قرارا حاسما: الزواج من كارول والاستقرار نهائيا في باريس!

تزوجت كارول. ذهبنا إلى بلدية الدائرة 13 لإشهار رباطنا. كان اليوم جمعة. الشمس في السماء وقحة مثل شتيمة. قاعة البلدية فسيحة وملأى بالمدعويين. كنت أرتدي بذلة سوداء كلاسيكية. الكوستيم الذي طالما تأملته بحسرة على واجهة زجاجية بالشانزيليزي، ولعنت بيار كاردان وأنا أتفحص الأرقام المفزعة التي كتبت على بطاقة صغيرة، قرب جيب السترة. كارول تلبس فستانا أبيض، مثل أي عروس في فيلم فرنسي من الدرجة الثانية. العرس نفسه يشبه شريطا أخرجه سينمائي فاشل. بين الفينة والأخرى، كان يهيأ إلي أنني أشاهد أناسا غريبين في قاعة البلدية: أصدقاء طفولة، زملاء دراسة، أقرباء غامضون، وعدة وجوه أليفة لكنني لا أعرف أسماءها... لم أتأكد من أن العرس يجري حقا في فرنسا إلا عندما رأيت عائلة كارول وأصدقاءها يوزعون علينا الابتسامات والزهور. انتابني إحساس غريب وأنا أوزع نظراتي بين الحاضرين. فجأة انتبهت إلى أن كارول التي تتأبط ذراعي ليست هي بالضبط كارول صديقتي! أنا أحدق فيها بدهشة وهي تبتسم لي كأن كل شيء على مايرام. لا ليست كارول. إنها فتاة أخرى أعرفها جيدا. مغربية على الأرجح. متنكرة. أحدق فيها. أتأمل عينيها. جبهتها. شفتيها. ذقنها. شعرها... أهز رأسي عدة مرات. لا أصدق ما أرى: إنها هند... زميلة الجامعة التي كدت أتزوجها في المغرب، لولا أنّ عربات البطالة دهست أحلامنا. لكن

هند تزوجت ابن خالتها من سنين وسافرت إلى كندا... هل طار لي الفرخ؟ فكّرت أن أسألها مَنْ أنت، وخفت أن أبدو سخيفا، عريس يسأل زوجته من تكون! ازداد المشهد سوريالية عندما ظهرت عمتي فجأة في المشهد، رأيتها تقترب وتسوّي لها الفستان، كما تفعل أي أم مع بنتها، وعندما نظرت إلى كارول اكتشفت أنها فعلا بنت عمتي. لا أصدق: كارول أم هند أم بنت عمتي؟ انتفخت رأسي مثل بطيخة حمراء. كما لو كنت في سباق مع كارثة. من هذه التي سوف أتزوج بعد هنيهات؟!

الموقف لا يحتمل الخطأ، لذلك منحت لعواطفي عطلة ولبست نظارات ديكارت، كي أفتش عن مخرج من هذا المأزق الغريب:

* أولا، علي أن أتذكر الهدف الأساسي من الزواج: الحصول على جواز سفر فرنسي.
* ثانيا، هوية الفتاة التي تمسك بذراعي مطمئنة دون أن تفطن لزلازل رأسي، غير مهمة في حد ذاتها: أهم شيء أن تكون فرنسية.
* ثالثا، الحصول على جواز سفر أحمر ممكن مع كارول ومع بنت عمي التي ولدت هنا وتحمل الجنسية الفرنسية.
* رابعا، الزواج من هند عودة إلى حضيض اسمه "المغرب".
* خامسا، علي أن أتأكد جيدا من مستقبلي قبل السقوط في بئر بلا قرار.

رتبت كل شيء في رأسي، وانتظرت لحظة الحسم. دخل العمدة ووقف الجميع. قرع جرسا أمامه لكي ينتبه الحضور، ثم شرع في تقديمه البروتوكولي: السيد فلان والسيدة... انحبست أنفاسي، وبدأت أتلفّت حوالي

بحذر كمجرم فار من العدالة، قبل أن أقفز من مكاني فرحا وأنا أسمع اسم كارول كاملا: السيدة كارول-مادلين إيسبيناس...

تنفست الصعداء أخيرا وأنا أضع الخاتم في بنصر كارول. الخاتم السحري الذي سيحولني إلى فرنسي ويعبّد لي طريقا سيّارا نحو المستقبل.

فجأة، من وراء زجاج النافذة، لمحت صديقي فؤاد. استغربت في البداية لماذا بقى بالخارج. رأيته يلوّح بيديه محتجا، كما لو كان يود تحذيري من كارثة. فهمت منه بسرعة أن هذا الزواج مجرد مقلب، لن يسفر على بطاقة إقامة ولا جواز سفر ولا هم يحزنون. لا أدري لماذا صدّقته وتملكني الفزع. لم أعرف ماذا أصنع. كيف أفر بجلدي من هذه الورطة؟ هل أستعطف المرأة الغامضة التي تتأبط ذراعي بأن نؤجل الزواج قليلا، ريثما تتوضح في رأسي الشخصيات والوجوه والحسابات؟ أم أصيح عاليا في وجه هؤلاء الأوغاد: "توقفوا...لا أريد الزواج. أريد أن أبقى حرا. أريد أن أبقى حرا!" ؟ كاد رأسي ينفجر... لا أعرف من أين تأتي الجرأة، لكنني تقدمت فجأة نحو العمدة وخطفت من يده ورقة الزواج قبل أن توقّع، وسط ذهول الجميع، قبل أن أطلق سيقاني للريح. قرع العمدة الجرس الذي أمامه بقوة، وهو يصيح: "أمسكوه". تبعني الجميع. ظللت أركض وكلهم يركضون ورائي وجرس العمدة يرن ويرن ويرن في أذني... استيقظت بعرق غزير على جبيني. أسكتّ المنبه المزعج. كانت الساعة تشير إلى التاسعة ليلا. تبّا... لن أنام هذه الليلة.

غسلت وجهي وأنا أستعيد شريط ما جرى: كيف غرّر بي فؤاد الحقير؟ كل شيء كان يدلّ على أن العروس هي كارول، ما أنذله وما أغباني... ضيّع علي الوغد فرصة العمر. ضاع جواز السفر الفرنسي!

3
ابتسامة فيرجينيا

"في المغرب كنت أعتقد أن الحب هو أن تدق في صدرك طبول ويشتعل قلبك مثل مصباح. في فرنسا عرفت أن الحب لا يحتاج طبلا ولا مصباحا ولا هم يحزنون: الحب هو أن تحصل على أوراق الإقامة!"

ج. لولاش

لا بد أن تعرفوا أن الزواج من فرنسية صار اليوم من قبيل المعجزات. عندما تحطّم برجا نيويورك في ذلك الثلاثاء البعيد، تحطّمت أبراج كثيرة في أحلام الشباب العربي المهاجر. أصبح العربيّ والغربية خطّان متوازيان فوق ورقة ممزقة، ينظران لبعضهما البعض بتوجس وسوء نية ولا يلتقيان أبدا. كلّما أراد الواحد منا أن يقبّل صديقته الشقراء فوجئ بلحية كثة وطويلة تتدلى من ذقنه وتعطي للقبلة مذاق الدخان. يتصاعد دخان كثيف من رأسك ومن أنفك وأذنيك وتتحول إلى برج مشتعل. منظرك المفزِع يسبّب للشقراء إغماءة طويلة. تهرع نحو المرآة وتجد نفسك لا تشبه أسامة بن لادن فحسب... بل أنت هو ميلياردير القاعدة الرهيب!

صارت للفرنسيات حساسية مفرطة تجاه من له بشرة سمراء. بالمقابل ارتفعت أسهم الجلدة السوداء القادمة من أدغال إفريقيا في بورصة الحب، لأنها مطيعة ووديعة، ويشاع أن لها عصيا طويلة تحت الحزام. هكذا جلسنا نحن على رصيف الغرب نحصي الخسارات ونشتم الطائرات والأبراج والدخان واللحى وصمويل هنتنغتون...

في فرنسا وكل الدول الغربية، إذا كنت بلا أوراق إقامة تعيش مطاردا مثل مجرم فارّ من العدالة في فيلم أمريكي رديء. لكي تنتهي المطاردة، عليك أن تدخل إلى مبنى بلديّة ما متأبطا ذراع شقراء ويعلنكما العمدة زوجا وزوجة. ولكي تصطاد فرنسية حقيقية عليك ألا ترمي شصوصنك كيفما اتفق. بل تتبع خطة طويلة وذكية ومخاتلة. قبل كل شيء، حاذر أن تكون مغفلا فتعتقد أن كل الشقراوات التي قد تصادف في طريقك يحملن أوراق الخلاص... الشقراوات ضروب وأصناف يا صديقي. ومثل "أديداس" و"نايك" و"لاكوست" وبقية الماركات العالمية، فيهن الأصيل والمزيّف، فاحذر التقليد. احترس من العربيات المتنكرات: الجزائريات والتونسيات والمصريات واللبنانيات والسوريات... والمغربيات طبعا! عليك أن تبالغ في الاحتياط لأنهنّ يحكمن التنكّر. يتقمصن دوْر الشقراء الغربية بشكل خطير. يزيفن لون العينين وشعر الرأس واللكنة وطريقة التدخين وإمساك الكأس، لدرجة أن بعضهن يصبحن ممثّلات سينمائيات... في أفلام رخيصة وماجنة، بينما تنتهي أخريات على حافة الطريق المحيطة بباريس في غابة بولوني أو شارع ستراسبورغ سان- دوني، يمارسن مهنا شريفة جدا تقضي الوقوف بثياب البحر، وتوزيع ابتسامات وغمزات داعرة على العابرين. إذا صادفت

شقراء متنكرة، سوف تنتهي بأن تكتشف مزحتها السخيفة، لكني أخاف عليك أن يحدث ذلك بعد فوات الأوان. أقصد بعد أن تنبت لك أذنان وخطم وذيل، وتمشي وراءها في الشوارع والساحات والأسواق فاغرا فاك كأبله، ولأنكما معا بلا أوراق، تصبح حياتكما ليلا طويلا: عمل أسود ومستقبل أسود وأحلام سوداء. في النهار، هي تنظف بيوت أسر فرنسية وتحرس أطفالها الصغار وأنت تصبغ الحيطان أوتكنس الأرصفة أو تسرّح القواديس. في المساء تشعلان شاشة ملونة، تسميانها شاشة الأمل، لكنك تنهض في نومك، وتصعد سلّما عاليا وتصبغها، تصبغ شاشة الأمل الملونة... بالأسود!

عدا العربيات، هناك الشقراوات المنحدرات من الشعوب الجائعة. و"الشعوب الجائعة" مصطلح نحتته العبقرية المغربية المشردة في أوربا لكي تفرق بين الأوربيتين، الغربية والشرقية، بعد سقوط الجدار واختلاط الحابل بالنابل. شقراوات الشعوب الجائعة قد يبتسمن لك بلا مناسبة، في الشارع، في عربات المترو، في السوبر مارشيات، في الحدائق العامة. تلتقي عيناك بعيني إحداهن فتسارع بالابتسام. أتذكر جيدا فيرجينيا. ليتوانية شقراء ساحرة، تعرف بالكاد ثلاث أو أربع كلمات بالفرنسية، ما تبقى ابتسامات توزعها ذات اليمين وذات الشمال. جمعني بها فصل واحد في الجامعة مع فتيات كثيرات قدمن من غياهب أوربا الجائعة: ليتوانيا، بلغاريا، رومانيا، روسيا، كرواتيا... وهلمّ جوعا!

طوال المحاضرات، كانت فيرجينيا لا تكفّ عن رشقي بسهام عيونها. تحدق فيّ وتسهو. حين تبتسم، أبادلها الابتسامة متمتما: « ça va ?» ، كي أكسّر الحرج. فيرجينيا الوافدة من أقاصي فيلنيوس لم تكن تعنيني. لم أضعها في قائمة أهدافي الحيوية. كنت قد نصبت فخاخي كلها

ليابانية لطيفة اسمها أوهايا وبقيت أترقب سقوطها في الشباك. بعد عدّة أسابيع سقطت أوهايا فعلا... لكن في حبال دافيد إبن الكلب، صديقي الروماني القادم من مدينة حقيرة تدعى كلوج. ذات يوم، متأثرا بهزائمي، أسقطت من رأسي كل الحسابات الخاوية وألقيت في سطل القمامة رزمة التخطيطات التي حملت معي لكي أقبض على المستقبل في هذه المدينة العنيدة. فتاة تتأبط ذراعك إلى أقرب بلدية وتحولك بخاتم سحري إلى مواطن أوربي لتنسى جنسيتك المغربية إلى الأبد، هذا هو المستقبل! مسحت قلبي مما علاه من غبار، رسمت على وجهي ابتسامة جنتلمان رقيق وقررت أن أفتش عمّا تخبئه ابتسامة فيرجينيا من مفاجآت. لم أكن أملك بيتا. كنت مجرد لاجئ جوال بين غرف الأصدقاء والعائلة في مناطق متفرقة. لذلك دعوت فيرجينيا إلى العشاء في غرفة صديقي فؤاد. فؤاد يقطن في ضاحية نائية بمحاذاة منطقة تدعي بونطو كومبو. الناس هنا يسمونها "بورطو كومبوس" لآنها آهلة بالبرتغاليين. البرتغاليون أكبر جالية أجنبية في فرنسا. عددهم يفوق عدد الجزائريين دون أن ينتبه لذلك أحد. يحترفون مهنا لا تقل وضاعة عما يقوم به العرب والسود. مشهورون على الخصوص بأشغال البناء وحراسة العمارات. بيد أنهم، على خلاف العرب، يندمجون بسرعة داخل المجتمع الفرنسي. لأنهم أوربيون ومسيحيون على الخصوص. هل تعرف أن كلّ ما يحكى عن التسامح وتجاوز الحساسيات الدينية في الجرائد والكتب والجامعات الفرنسية مجرد هراء؟ بعد عام أو عامين في القارة العجوز، سرعان ما تكتشف أن الذاكرة والدين يشكلان عاملين حاسمين في كل تفاصيل الحياة. من البحث عن العمل إلى التفتيش عن سكن أو حتى شرب قهوة في تيراس مقهى أو مجرد إلقاء التحية. التعامل مع الأمريكي اللاتيني أو

الأوربي الشرقي لا يشبه التعامل مع العربي في شيء. كما أن البرتغالي ليس هو التركي مثلا. رغم أن الأتراك أوربيون بحكم التاريخ والجغرافيا ويودون اقتسام المستقبل مع جيرانهم فسيبقون على الهامش إلى ما شاء الله. لماذا؟ لأنهم يشهدون أن لا إلاه إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولو بنبرة عربية مكسرة. لن يحصلوا أبدا على بطاقة الإنخراط في هذا النادي المخصص للمسيحيين البيض الذي يسمى "الإتحاد الأوربي"، وقد قالها لهم جيسكار ديستان صراحة وسيقولها الملايين جهرا وسرا في الاقتراعات والاستفتاءات المخصصة لذلك. لا أعرف لماذا اعتقدت دائما أن المغاربة أرفع شأنا من البرتغاليين. هل لأن كتب المدرسة كانت كل عام تذكرنا كيف فتك أجدادنا بملكهم دون سيباستيان سنة 1578 في وادي المخازن؟ تبدو اليوم مضحكة هذه المعركة: تصوروا حربا يموت فيها ثلاثة ملوك دفعة واحدة. لقد كان الحكام فرسانا حقيقيين أيام السيوف والنبال والكر والفر والخيول والغنائم. في ذلك الزمان، كان الملك يقف في الخط الأول للقتال. يرفع سيفه وحنجرته ليرهب الخصم. الحكّام اليوم جبناء ومحتالون، يجلسون في مكاتب مكيّفة وينتظرون الأخبار. وفي الوقت المناسب من الهزيمة يعقدون صفقة مع العدو، على جثث الجنود البسطاء.

بدأ الفيلم يكشف عن سلوكات أبطاله بالتدريج. وصلنا إلى محطة القطار في لاكار دو نور (محطة الشمال). أردنا أن نركب القطار E في اتجاه لوبليسي تريفيس حيث غرفة فؤاد. أشهرت تذكرة تنقلي التي تكلفني كل شهر أكثر من ستين أورو. تقدمت نحو الحاجز الحديدي كي أدخلها في الآلة المغناطيسية وأفتح الحاجز. كنت على علم بأن فيرجينيا لا تملك تذكرة شهرية مثلنا تسمح لها بأن تركب في هذا الإتجاه البعيد. بيد أنني

تجاهلت الأمر: لتشتر تذكرة من جيبها، لقد دعوتها للعشاء لكنني لم أقل أبدا بأن التنقل على حسابي... أنا لا أنظم مهرجانا! غير أن فؤاد انتبه إلى ارتباك فيرجينيا أمام الحاجز وقال لي، بمنتهى الحقارة، إن الفتاة لا تملك تذكرة ويجدر أن أقتني لها واحدة كي لا ينكّل بها **مراقبو** التذاكر. قال ذلك في مزيج من العربية والفرنسية. اشتد حنقي عليه لكن النذل كان قد تمكن من إثارة كبريائي، فاتجهت رأسا إلى شبّاك التذاكر. وصلنا إلى آخر محطة. عرّجنا على محل فران برّي المجاور كي نشتري بعض لوازم ليلتنا الحمقاء. في الخارج، كانت الريح تصفر مثل موسيقي رديء وفيرجينيا ضائعة وسط معطفها القوقازي الثقيل. تنظر إلينا مثل معتوهة وتبتسم. تتفحص المواد المصفوفة بعناية في رفوف فران برّي وتبتسم. بشعرها الأشقر الطويل وعينيها الخضراوين، تبدو مشعة كشمس. لكن بمجرد ما تشرع في الكلام تسقط الشمس في مستنقع. تكتشف فتاة بدوية مملة. بدوية حسناء، ثقيلة الظل. هذه هي فيرجينيا، لذلك لم يفارقها بعينيه حارس السوبرمارشي الأسود الثخين. لم ينزل بنظراته عن جسدها ذلك المكبوت. أما هي فقد كانت تبادله النظرات... وتبتسم!

4
الشعوب الجائعة

"ماركس محتال كبير: كان يقول إننا
بسبب الجوع نثور ونصبح شيوعيين،
لكنه لم يشرح كيف نفلس، في النهاية،
ونصير جياعا بسبب الشيوعية!"
ج. لولاش

وصلنا إلى البيت. حجرة أنيقة في فيلا فاخرة يدفع فيها فؤاد ثلاث مائة وخمسين أورو كل شهر. بها حمام نظيف وثلاجة وفرن ميكروأوند. فؤاد يقتات على البيتزا فقط. لذلك وجدنا جبلا من الكراطين التي كانت تنام فيها أقراص البيتزا جامدة قبل أن يفتك بها. قالت فيرجينيا إنها أيضا تحب البيتزا لكنها لا تملك فرنا ميكروأوند لتسخينها. قلت ممازحا: "يعيرك إياه فؤاد متى شئت!" العجوز التي يكتري لديها الغرفة إسمها مدام إسلان. عمرها ثمانون عاما، لكنها نشيطة مثل نحلة. تستيقظ باكرا جدا كل صباح وتشرع في تشذيب عشب وأشجار حديقتها الفسيحة. قبل أن تدخل إلى ورشتها، وتنهمك في تجليد الكتب. طوال النهار، لا تتوقف عن العمل. ربما كي تنسى أنها امرأة في نهاية المشوار ووحيدة وأن زوجها غادرها منذ زمن بعيد إلى السماء. مدام إسلان عجوز طيبة، لكنها في مشاحنات مستمرة مع فؤاد لأنه لا ينظف غرفته. البرتغالية التي تأتي كل جمعة لكي

تنظف الفيلا تقول لها إن الغرفة لا تختلف كثيرا عن سطل القمامة. العجوز حانقة أيضا لأن فؤاد لم يدفع لها بدل الإيجار منذ شهرين. لأنه ببساطة لا يملك فرنكا واحدا. فهو بلا عمل والنقود التي يرسلها إليه الوالد من المغرب بالكاد تكفيه لاقتناء كراطين البيتزا الجامدة وإحراق صدره بالدخان. آخر مرة رآها هدّدته بأن تشتكيه إلى السفارة المغربية في باريس. فؤاد ضحك من أعماقه ورجاها أن تفعل، ربما يصاب السفير بالحرج ويقرر التكفل بأداء واجب الكراء... مرارا أقول له، لست سوى محتالا وحكايتك مع العجوز ستقودك إلى الهاوية. ستنتهي يوما ما في السجن مثل عمر الرداد!

شربنا شايا. شاي بلا مذاق. بيد أن فيرجينيا أثنت عليه. الجائعة. ودّعنا فؤاد. قال إنه سوف يقضي الليلة في "دار المغرب" لدى أحد الأصدقاء. المسكين. لم يكن ليخطر على باله بأن الليلة ستتحول إلى كابوس لايطاق. الصديق إياه أخلف الموعد كما يفعل كل التافهين. لم يكن في غرفته أو ربما لم يرد أن يفتح الباب بكل بساطة. أما أنا فكنت قد أطفأت هاتفي كي لا يزعجني أحد. كلّت يدا فؤاد من الطرق. ذهب إلى مقهى باري أورليون الذي يبقى مفتوحا في بورط دورليون طيلة الليل. طفق يحتسي قهوة تلو قهوة ويشتم الليل والبرد ومواعيد المغاربة والمغاربة والشعوب الجائعة وفيرجينيا وسنسفيل جدودي... لم يكن بإمكانه أن يعود إلى غرفته. ليس تفاديا لإحراجي بالتأكيد، بل لأنه كان يعرف جيدا أن آخر حافلة تذهب إلى بونطو كومبو حيث يقطن، كانت قد مرت منذ ساعتين!

في صباح اليوم الموالي، عندما وجدت في علبتي الصوتية رسالاته السبع حانقة شاتمة ضحكت طويلا. قلت له وأنا أناوله مفاتيح

الغرفة: "معذرة أنا مذنب في حقك. نسيت أن أعطيك شفرة دخول أحد المراحيض التابعة لأرباب النقل في بورط دورليون، أعطاني إياها سائق حافلة ذات يوم لأقضي حاجتي. المرحاض موجود غير بعيد عن المقهي في محطة الحافلات، كنت ستقضي هناك ليلة دافئة!" كانت عيناه تنغلقان من تلقاء ذاتهما. أمسك المفاتيح وهو يسبّ ويشتم ثم مضى بخطوات مبعثرة نحو البيت. ذهبت رفقة فيرجينيا إلى مقهى لافونتين بالحي اللاتيني. التحق بنا فؤاد بعد أن نام بضع ساعات. كانت ثمة سهرة موسيقية في حدائق الليكسومبورغ تحييها فرقة من الكوت ديفوار. ذهبنا سويا في اتجاه الحدائق. في تقاطع شارعي سان ميشال وسان جرمان قرب مصرف كريدي ليوني عثرت فيرجينيا على ورقة زرقاء من فئة عشرين أورو. انحنت والتقطتها بفرح هستيري. قلت لها على سبيل الإختبار الماكر: "سوف نتقاسمها أليس كذلك فيرجينيا !" ردّت بفرنسيتها التي تشبه فرنسية الهنود الحمر في أفلام الويسترن المدبلجة: " Non, moi trouver !". استدرت نحو فؤاد: "أرأيت الجوع ؟ لهذا يخافون من ضمّهم إلى الإتحاد الأوربي!"

من صوفيا إلى فيلنيوس مرورا ببوخارست وبودابست وفارسوفيا وعواصم البلقان ودول الإتحاد السوفياتي البائد، يتسكع الفقر مثل عراف عجوز وفي يده عصا سحرية تمسخ أبناء الشعوب التي كان يحكمها "الرفاق" إلى لصوص وشحّاذين. ثمة فيضان كاسح من المشرّدين يهدّد بتحويل الإتحاد الأوربي إلى "سوق" حقيقي... المنحدرون من أوربا الشرقية لهم علاقات واقعية بجيوبهم. لذلك تراهم يجاهرون بفقرهم وتشردهم ويتربصون بجيوب الآخرين، كما تفعل فيرجينيا منذ ليلة أمس.

ليس مثلنا نحن الذين نملك أرصدة ضخمة في مصرف الكبرياء. نحن الذين تربطنا بجيوبنا علاقات سوريالية، بحيث قد يضيّع الواحد منا كل ثروته في سبيل الكبرياء. كأن تفرغ حافظة نقودك دفعة واحدة في يد نادل مقهى فقط لأنك أصررت على دفع ثمن مشروبات أربعة أشخاص جلسوا إلى مائدتك، دون سبب واضح. ربما لأننا نرفض أن نصير كتبا مفتوحة تمشي في الشوارع فيقرأ العالم جوعنا وفقرنا. إنها حصتنا من النخوة والصحراء... الأوربيون الشرقيون لا تهمهم المظاهر. لقد غسلوا ما تبقى من حمرة في راياتهم وفرشوها على رصيف الدول الرأسمالية حيث قرفصوا يستجدون. أما خدودهم فقد غادرتها الحمرة منذ زمن بعيد. أذكر يوم تشاجرت مع سفير رومانيا في الرباط صيف 1998. ليس لأنني ذهبت أطلب تأشيرة إلى بوخارست فرفض كما قد يتوهم البعض. تلك آخر حماقة كان يمكن أن تخطر على بالي. تشاجرت معه في شارع محمد الخامس أمام البرلمان. بين أروقة معرض للكتب نظم سنتئذ على هامش مهرجان الرباط. داخل المعرض، كنت أشرف على فضاء صغير لتوقيع الكتب. كل يوم في الخامسة مساء أستضيف كاتبا ليوقع مؤلفه وسط جماعة من الفضوليين. ولأن الأروقة كانت عن آخرها ملأى بدور النشر وبجمعيات ومؤسسات تربطها علاقات غامضة مع الكتاب، فقد وجدتني مجبرا على "التناوب التوافقي" مع رسام روماني ثخين على رواق واحد. شعره طويل وبطنه مندلق، يشبه نافورة عرق متحركة. ملصقات فوق رأسه تقول إنه "أسرع رسام في العالم". إلى جانب فنانين آخرين، معظمهم من الدرجة العاشرة، دعت إدارة المهرجان فنان رومانيا الثخين لكي ينشط فضاءات المعرض. الدعوة معناها أن مجلس عمالة الرباط تكفّل بإقامته وسفره ودسّ في جيبه ظرفا محترما يساوي ثلاث أو أربع مرات المبلغ

التافه الذي يعطيه لفنانين أكثر موهبة، لا لشيء سوى لكونهم مغاربة!
كانت الرسومات التي ينجزها الروماني لزائري المعرض مجانية مبدئيا.
هدفها خلق حيوية وجلب مزيد من الزوار. لكن الطمع ثور أعمى وجائع
في معظم الأحيان. شرع الروماني يبيع ما يرسمه للفضوليين المندهشين
من رؤية وجوههم تتشكل أمامهم على ورق أبيض. تحلّقت حوله جوقة
كبيرة واستحلى الدراهم ولم يرد مغادرة الرواق حتى بعد مرور الخامسة
مساء، وهو الموعد الذي يفترض أن يوقّع فيه الشاعر محمد بنيس كِتابا
ضخما عنوانه "هسيس الهواء". يبدو أن الطلبات الكثيرة التي لديه قد
تستغرق الليل كله، رغم أنه أسرع رسام في الكون! تقدمت نحوه وطلبت
منه بأدب أن يخلي الرواق واضعا سبابتي على الساعة التي في معصمي.
نظر إليّ دون أن يرفع يده عن الورقة البيضاء. أدركت أن الثور لا يفهم
الفرنسية. بيد أن رجلا لايقل بدانة عنه، كان إلى جانبه، هو من رد علي
موضحا أن الرسام لن يغادر الرواق ما دام الناس متحلقين حوله. أجبته
أننا في مهرجان. والمهرجان له إدارة. والإدارة وضعت برنامجا.
والبرنامج يقضي بتوقيع كتب في هذا الرواق ابتداء من الخامسة بعد
الزوال. لكنه تجاهلني وتوجه إلى الجمهور: "هل تريدون الرسم أم
الكتب؟" استشطت غضبا: "الناس يفضلون كرة القدم وثمة مباراة حاسمة
سوف تبدأ بعد هنيهات. من الأفضل أن تذهب وصديقك السريع
لمشاهدتها..."

"- لاتستهزئ بي. أنا سفير رومانيا في المملكة المغربية"

"- وأنا سفير كازاخستان! "

ذهب سفير الغفلة يشتكيني لإدارة المهرجان ولمجلس عمالة
الرباط. لكنهم كانوا منشغلين عنه في تدبير النقود اللازمة لتغطية تكاليف

ثلاثة أسابيع من السهرات، بعد أن أخلفت بعض المجالس البلدية التزاماتها المالية لأسباب سياسية. في النهاية وقع اختيار المنظمين علينا نحن الذين تربطنا بهم عقود عمل بسيطة لندفع ثمن الخلاف السياسي. "الشخصيات الهامة" من المشاركين ظفرت بملايينها، فيما ضيّع تسيب مجلس العمالة دراهمنا المعدودة. ذات يوم، ضقنا ذرعا بالإنتظار فقدنا مظاهرة صغيرة من مقهى "المثلث الأحمر" واحتللنا أدراج عمالة الرباط نطالب بنقوذنا. بعد نهار من الهتاف والشعارات ومن الكذب والمخاتلات، تدخل رجال السلطة ومنحنا مجلس العمالة ما نستحق من... ركل ولطم وشتم. كنا حوالي أربعين محتجا. ممثلون ومنشطون وسينوغرافيون وصحافيون... كل واحد يحمل في يده عقد العمل الذي وقعته معه إدارة المهرجان. عقود العمل كانت حقيقية لا غبار عليها، لذلك اقترح البعض أن نحملها إلى المحامي ونرفع دعوى جماعية على إدارة المهرجان. ابتسمت وأنا أتخيّل مدير المهرجان ورئيس مجلس العمالة يتبادلان العتاب والشتائم داخل زنزانة كما يحدث في الأفلام المصرية. رغم أن نهايات الأفلام لا تشبه النهايات في الواقع فقد وافق الكل على اقتراح تسليم العقود للمحامي، خصوصا عندما فقد أحدنا صوابه وهدّدهم بالإنتحار فكان قصارى ما حصل عليه قنينة ماء صغيرة ليطفئ غضبه. الحقيقة أننا خشينا أن يتحول الموقف الذي كان ساخرا، رغم كل شيء، إلى مأساة يونانية. لذلك انسحبنا بهدوء نفتّش عن محام يقود النصّابين إلى السجن. فجأة نزل قرار من فوق. حصلنا أخيرا على دراهمنا اتقاء للفضيحة على ما يبدو.

5

تعالوا نسافر إلى مونريال

"أنا أيضا كنت شاعرا، لكنني توقفت
عن الكتابة منذ اكتشفت أن رامبو الذي
طالما فضحونا به، كان مجرد غلام
بمؤخرة طرية!"

ج. لولاش

تشتتنا كتلاميذ على طاولات متفرقة ونشرنا الفوضى في ردهات المقهى. قيس التونسي يشرب بيرّة تلو أخرى ولا يكف عن الكلام والضحكات. ناطاليا، القادمة من سان بيطرسببورغ، تجلس على ركبتيه كطفلة مدللة وأمامها حقائب وأغراض مبعثرة. فيم أناّ، بنت بودابيست، تدخن سيجارة وتبتسم كما لو كانت تريد أخذ صورة. فرانك، الكاميروني، يبدو متوترا. ينظر إلى أزرا البوسنية بعيون جائعة ثم يدير وجهه وهو يدندن أغنية ليانيك نوا. أنا كنت أحتسي قهوة بالقشدة وأدخن سيكارا غليظا، كعادتي في مثل هذه المناسبات. صحيح أنني لا أملك ثروة موزّعة على مصارف العالم ولا أسهما ضخمة في شركات متعددة الجنسية وصحيح أنني لست ثوريا خطيرا مثل غيفارا أوكاسترو، لكنني أعشق الاثنين: المال والثورة. وأعتبر ذلك سببا كافيا لكي أدخن أصبع سيكار محترم كلما أردت أن أعبر عن سعادتي. واليوم أنا سعيد حقا. لأن طائرة ضخمة ستحملنا بعد هنيهات في اتجاه القارة الأمريكية. بعد بضع ساعات

نصل مطار ضورفال في مونريال لكي نقضي أسبوعين في كندا... من ابن مسيك إلى الكيبيك. لا أصدق!

كندا بعيدة جدّا وخضراء. هكذا كنت رسمتها في رأسي. منذ كنت صغيرا وأنا أمنح للمدن وللبلدان ألوانا. تماما كما أفعل مع أيام الأسبوع: فرنسا زرقاء. أمريكا بيضاء. الصين برتقالية. مصر سوداء فاتحة اللون. اليمن أبيض. السويد حمراء. أستراليا رمادية. الهند سماوية اللون. المكسيك أصفر. ألمانيا بيضاء. جنوب إفريقيا لونها أخضر، لكنه أبهت من لون كندا... وحده المغرب ظل في خيالي بلا لون وبلا طعم وبلا رائحة. وماذا أيضا؟ الأربعاء أخضر. الخميس أسود -ليس أبدا بسبب وولستريت-. الجمعة أحمر. السبت أصفر... ولا تسألوني لماذا. في زمن الجاهلية الأولى، عندما كان حلمي هو أن أصبح شاعرا محترما، قرأت "المركب السكران" وسائر أشعار رامبو وأطلقت لحية خفيفة كي أبدو على قدر لا يستهان به من الشاعرية. قرأت أيضا رسائله وما كتب عن حياته. ولم أفهم لماذا ظل الدارسون والنقّاد يتعجبون من ربط الحروف بالألوان في قصيدة "الصوامت". استغربت لأن رامبو كان مجرد طفل يلعب وقالها صراحة *لسنا جادين عندما يكون عمرنا سبعة عشر عاما* ". لكنهم لم يريدوا أن يفهموا وشرعوا يفتشون عن تفسيرات سخيفة لما كتب ويسمّون أنفسهم نقادا. إنهم أغبياء على نحو لايصدق. يسقطون دائما أوهامهم وعقدهم على ما يكتبه الآخرون. رامبو كان يلهو بالألوان وبالكلمات وبالحروف، تماما كما كان يلهو بحياته. وهمْ أصرّوا على استخراج الفولاذ والنفط والمنغنيز والفحم الحجري من قصائده: سوريالي ودادائي وحداثيّ ومستقبلي وطلائعي ومسيحي ومسلم وصوفيّ... لا أحد أراد أن ينتبه للمراهق الذي يصرخ محتجا: *لست جادا. لست جادا*... أحمد الله

أنني نسيت كلّ ذلك الهراء، لو استمررت معهم لأصبت بفقر الدم أو داء السكّري... مضحك أمر هؤلاء النّاس. من هو رامبو في نهاية المطاف؟ مجرّد غلام بمؤخرة طريّة كتب بعض الأشعار!

الألوان تظل في رأسي حتى بعد أن أكتشف الأمكنة وأزورها. قد تختفي أماكن وذكريات كثيرة، لكنّ الألوان تبقى. ألوان بعيدة، صافية وناصعة.

بدأ قيس يتحدث عن السيارات، عن حبه لسباقات الفورميل وان، وعن "كهربته" الفورد التي ترك في تونس. سوزانا، الكرواتية الشقراء، قالت إن أمّها في زغرب تمنعها من قيادة السيارة رغم أنها أحرزت، منذ سنوات، رخصة السياقة. قالتها وضحكت بتلك الطريقة الغريبة التي تجعلني دائما أفكر أن أقفز نحوها وأقبّلها في فمها. أزرا أخرجت بالادور وشرعت تنصت للموسيقى وتحرك رأسها، فيما فرانك يحرك قدمه وجسده بكسل ويواصل نظراته الثاقبة صوبها. مسكين فرانك. واضح أنه يحب أزرا لكنها لا تعيره الاهتمام اللائق. تتعمد تجاهله كأي فتاة لعوب وغير متفتحة بما يكفي. هي بوسنية شقراء وجميلة وفرانك كاميروني أسود، أنيق مع كثير من الاعتداد بالنفس. تربطهما علاقة غرامية غامضة منذ مدة. لكن يظهر واضحا أن أزرا لا تقبل أن يراها الآخرون مع زنجي. وتحرص أن تبقي علاقتهما سرية بعيدا عن فضول وشماتة الآخرين. ذلك ما يزعج صديقنا فرانك، الذي لا يفهم إصرارها على تعقيد الأمور، ولم لا تتركه يمسك بيدها ويقبّلها أمام الملأ كما يفعل كلّ العشاق هنا؟ هذا الغموض هو ما يجعل عينيه الآن تقدحان تلك النظرات الغاضبة كما بركان بفوهتين غادرتين. فيما أزرا تضحك وتتسلى وتتجاهله لأنها واثقة من نفسها ومن حبّه: النساء هم النساء يا عزيزي فرانك أينما ذهبت!

ثمن التذكرة من باريس إلى مطار شارل دوغول مرتفع جدا قياسا إلى باقي الإتجاهات. كأنك ملزم بتأدية ضريبة ما عندما تكون مسافرا. كما لو لتكفر عن متعة ما أو لتتضامن مع الذين ليس بوسعهم السفر. أو كأنهم في الRATP وال SNCF، يتذكرون أنهم لم ينهبوك بما يكفي، فيقررون أن تدفع الثمن وأنت تغادر...أنا تحدّيتهم، ولم أشتر تذكرة!

يقطع القطار B مسافة طويلة قبل أن يصل إلى المطار المرمي في أقاصي شمال العاصمة. إذا ركبت من لاغار دو نور، مثلي، لابد أن تمر من أولناي سوبوا وفيلبانت وسوفرون بودوت ولوبورجي... قبل أن تصل إلى رواسي شارل دوغول تيرمينال 1، ثم رواسي شارل دوغول تيرمينال 2. ومثلما ثمة أيّام ومدن لونها أسود، هناك محطات أيضا. محطات تكيد لك كما يفعل أي عدو تافه. مثل محطة سوفرون بودوت: في هذه المحطة اللعينة فاجأني مراقبو التذاكر. طلعوا علينا مثل قطّاع طرق بزي موحد. فكّرت أن أكذب وأدّعي أنني سأنزل في المحطة القادمة. علْما أن تذكرتي البرتقالية، التي أشتريها كل شهر، تسمح لي بالتنقل حتى تلك المحطة. لكنّني تراجعت بسرعة لأنني أدركت أنني قد أضيع موعد الطائرة كما أن حقيبتي ستفضحني! فوجئت بمراقبة شقراء تطلب مني التذكرة وهي تبتسم. سألتني عن وجهتي وهي تتفحص بطاقتي البرتقالية. لا أعرف إذا ما كان ذلك بسبب ابتسامتها أم لأنني أدركت أنني لا أملك خيارا آخر، لكنني بسهولة مدهشة اعترفت أنني ذاهب إلى المطار. بطاقتي البرتقالية تغطي أربعة مناطق فقط، بينما يوجد رواسي شارل دوغول في المنطقة الخامسة. نبّهتني المراقبة إلى ذلك دون أن تتخلى عن ابتسامتها. لم أجد ما أقوله. هززت أكتافي وظهر عليّ الحرج. لقد وقعت في الشبكة. سأدفع ثمن تهوري غاليا. كان بإمكاني شراء

التذكرة. لكنني طمّاع. مصاريف السفر والإقامة في كندا تكفلت بها جمعية تعنى بالتعاون الفرنسي- الكيبيكي. علاوة على ذلك نفحتني ستيفانيت، مديرتنا، ثلاثمائة أورو مصاريف جانبية: كان باستطاعتي أن أقطع تذكرة وأسافر في سلام كأي شخص محترم... أتعجب كيف لم أفعل؟ يبدو أن الحضيض الذي جئت منه سيظل يسحبني نحوه إلى الأبد!

لأدفع الآن ثمن تذاكر كل المهاجرين الأنذال الذين لم يشتروا قسيمة نقل في حياتهم. لأدفع تذاكر المحتالين المحترفين الذين لا تربح معهم شركات المترو والقطارات والحافلات غير المشاكل... لم أكن منزعجا لأنني سأدفع. شعرت فقط أنني تافه وحقير وجبان وقطّاع طريق من الصنف الرديء. تمنيت لو تهوي على خدي كفٌ غليظة كي أتأدب ولا أعود ثانية لما فعلت. أحسست أنني مجرد حشرة، صرصار مقزّز، وتمنيت لو أن قدما ثقيلة تسحقني. وسرعان ما غادرني الشعور بأنني وقعت في مطبّ. انتظرت أن تعطيني المراقبة محضر الخرق وتطلب مني ستين أورو كغرامة مرشحة للارتفاع إذا لم أدفعها في الحين. لكنها أخرجت تذكرة وقالت لي:

Je vais vous donner juste un ticket ordinaire pour Charles-de-gaules…Ok ? 7 euros s’il vous plait !

لم أعرف كيف أردّ، لكنني أحسست أنني تخلصت من ورطة حقيقية وأقسمت ألا أضع نفسي مرة أخرى في مواقف سخيفة مثل هاته. سلّمتها سبع أورو وشكرتها بحرارة. طوال ما تبقى من الطريق، بقيت مشدوها أفكر في التذاكر والمراقبة الشقراء وابتسامتها وفي النذالة والكذب والتخلف والقذارة والحضيض وفي الصراصير...

6
ضحكة كندية

"ليس الفتـي من يقول كان أبي،
إن الفتـى من يقول... ها كندا!"
ج. لولاش

أقلعت بنا البوينْغ 747 في اتجاه مونريال. طائرة الخطوط الفرنسية واسعة جدّا، مقاعدها مريحة وبها مضيفات جميلات. ليس مثل طائرات الخطوط المغربية التي صارت تشْبه حافلات تحلّق في السماء. كنت متعبا، لكنّني لم أستطع النوم. تملّكتني حالة غريبة. كنت قلقا وفرحا على نحو لا يصدّق. لم يسبق لي في حياتي أن قضيت سبع ساعات كاملة في السماء. تحسّ أنّك خفيف وقريب جدّا من الله وتتذكر كل الذنوب الصغيرة والكبيرة التي حملت معك، دون أن تعرف كيف تتخلّص منها. تتمنّى لو أنّك تستطيع أن تضعها في كيس أسود وتقذف به نحو الغيوم التي تظهر جنبك من نافذة الطائرة. تسأل نفسك إن كنت حقّا ستعود ثانية إلى الأرض أم أنك ستكمل رحلتك نحو الأعلى. وتتعهد، بينك وبين نفسك، أن تقلع عن كل المصائب إن عدت إلى أرض البشر سالما... لكن بمجرد ما تعود تحمد الله على السلامة، تضحك وتنسى كل شيء!

بعد أن قطعنا مسافة لابأس بها تبدّد الشعور الغريب واستعدت كامل حماقاتي. في طريقي إلى المرحاض لاحظت أنّ سوزانا وضعت على وجهها نظّارات طبّية عريضة وبدت كأنها تقدّمت عشرين سنة من العمر. لم أعرفها في البداية. قلت لها مازحا:"حسبتك ستيفانيت!". لأنّ مديرتنا، ستيفانيت، تضع دائما نظّارات طبّية قمينة ولا تعتني بمظهرها. ضحكَتْ وشرحَتْ لي أنّها لا يمكن أن تحتفظ بالعدسات لأنها تسبّب ألما فظيعا في الفضاء، بفعل ارتفاع الضغط. أضافت أن الضغط جعل أزرا عند الإقلاع تتألّم وتبكي جرّاء آلام في الأذن. نظرت إلى البوسنية الشقراء جنبها ووجدتها نائمة وقد علا وجهها الشحوب. فتّشت تلقائيا عن عاشقها المخذول فرانك ولمحته، غير بعيد، يضع في أذنيه سماعات بالادور مدلّيا رأسه على المقعد. معظم الركّاب يظهر عليهم التعب وكثير منهم استسلموا للنوم. وحده قيس وأنّا وناطاليا جلسوا في مقاعد متجاورة يحتسون كؤوس الويسكي ويضحكون. جلست قربهم لبعض الوقت. أنّا وقيس يملؤون كؤوسهم من قنينة J&B، فيم ناطاليا تحتسي حصتّها الكحولية مباشرة من زجاجة بايليز. لقد اشتروا قناني كثيرة ومختلفة من الفريشوب واحتسوا نبيذا أحمر مع وجبة الغذاء وتنكات بيرّة في مطار شارل دوغول وقبل الأكل ولا أحد يعرف كيف ستكون حالتهم عندما يصلون إلى مونريال...

الكنديون عكس الفرنسيين تماما. عندما يتكلّم معك أحدهم تكاد تصدّق أنه يعرفك منذ زمن بعيد. يتحدثون ويبتسمون بلا توقف، كما لو كانوا يشتغلون بالبطاريات. في بهو فندق ترافلوج على شارع سان-كاترين الطويل، اجتمعنا بعد أن وضعنا أمتعتنا في الغرف، وأخذ معظمنا

دوشا ساخنا. تأخّرت قليلا قبل أن أنزل للبهو. عندما التحقت بالشلّة، كنت ألبس بلْغة رمادية وشعري مبلّل. وجدت على مائدة توسّطت البهو قناني كثيرة من المشروبات الغازية وحلويات وفواكه مجفّفة. حولّها جلس الجميع ينصت إلى عرض يصلح أن نعطيه هذا العنوان: "دليل السائل إلى مقام في كندا دون مشاكل". كارين، التي استقبلتنا باسم الجمعية الفرنسية-الكيبيكية، هي من كان يتحدث. كندية في العشرينات. تشرح بابتسامات واسعة وتدخّن بشراهة. جميلة، قامتها قصيرة بعض الشيء وشعرها أسود فاحم طويل. تكلّمت عن كل شيء: عن الفنْدق والمترو والسوبر مارشيات والدولار الكندي ونهر سان لورون وجزيرة سانت إيلين والحي الصيني والبورْبوار الإجباري الذي ينبغي أن تضعه على طاولة أيّ مطعم تغادره... وأنا أحاول تتبّع ماتقول أدركت أنّ فهم حياة الكيبيكيين لا يقلّ تعقيدا عن فهم فرنسيتهم. ماذا يعني أن تؤدّي بقشيشا إجباريا في المطاعم والمقاهي؟ وماذا يعني أن تحسب بنفسك الضريبة التي ستدفعها عن كل شيء تقتنيه؟ الناس هنا أيضا، مثل فرنسا، مهووسون بالضّريبة. العيش في المغرب أسهل بكثير، فكّرت. حكّامنا أذكياء يستلّون منك ما يريدون دون أن تحسّ. يستخلصون كلّ ما شاؤوا من الرواتب والأجور والتعويضات، دون أن يدخلوا معك في التفاصيل. يقومون باقتطاعات مباشرة، في الفواتير التي يأتي بها البريد أو يحملها مستخدمون لايتخلّون عن وجوههم العابسة إلا نادرا. هكذا يبقى الجميع مرتاح البال: المواطن والإدارة والحاكمون.... كل ما يتعلّق بالضرائب عندنا يظل معقّدا وعصيّا على الأفهام، بدءا من الاسم. إذا مزجت بين كلمتي مقت ونحس تحصل على اسم الضريبة في المغرب: المكس، هكذا يسمّونها في الوثائق الرسمية. ربمّا لأنها كانت نحسا على أكثر من سلطان، أيّام كان المغرب

يسمّى الإيالة الشريفة وسكّانه يعرفون بالمراكشيّين. في المقرّرات المضحكة حيث درسنا تاريخنا المزوّر، كانت نفس الجملة تعود كلّما تعلّق الأمر باضمحلال أسرة حاكمة أو تقهقر أحد السلاطين: "فرض المكوس وتجرّأت عليه العامة في الأسواق"، قبل أن يضيفوا: "وتفرّق ملْكه شذر مذر وكان عبرة لمن اعتبر".

انتبهت إلى أنّ ناطاليا وأنَا تنظران إلى قدميّ وتضحكان مثل مجنونتين. تفحّصت قدميّ وتملّكني الحرج: هل كان عليّ أن أضعهما في هذه البلْغة السخيفة؟ إنني أبدو لهؤلاء الأنذال مثل لصّ من لصوص علي بابا. الخبيثتان تنظران إلى رجليّ وتمسكان ببعضهما البعض في ضحكات مكتومة وطويلة. تحوّل الحرج إلى غضب لأنّ ناطاليا بالغت قليلا. لم يكن من داع لكي تنبّه أزْرا وسوزانا أيضا: أنا لست بهلوانا! ثم إنني لم أضحك منها هكذا عندما ارتدت فستانها الروسيّ التقليدي، خلال الحفل الذي أقمناه في بهو إقامتها بالحي الجامعي الدولي. لقد كان فستانا سخيفا بحبّات بلورية مزوّرة وتافهة، لكنني احتفظت بتعليقاتي لنفسي وقلت إنه رائع. رائع... ماذا سأخسر. أعرف أن لبّ ناطاليا أبيض مثل فرو دب، لذلك وجدتني تلقائيا أشاركها الضحك في النهاية. كانت عينيّ حمراوين جرّاء الطريق والدوش والطائرة والفارق الزمني والقهقهة. قيس كان نائما في مكانه. أفضل، قلت في نفسي. لو استفاق لما سكت بعد كل الكحول الذي هرق في بطنه!

انتهت كارين من محاضرتها التي تشبه عرضا فكاهيا بسبب لكنتها وحركاتها الغريبة. قدّمت لنا بعد ذلك شخصا يدعى روبير، قالت إنه سيلقي علينا عرضا قصيرا حول تاريخ الكيبيك. أضافت أنّه زميل درَّس

التاريخ في جامعة كيبيك في مونريال وهو يعطي الآن محاضرات خصوصية بعد أن تقاعد. كارين لم تتجاوز بعد السنة الثانية في شعبة التاريخ بنفس الجامعة وتسمّي الأستاذ روبير زميلا... عجيب أمر هؤلاء الكنديين!

رسم زميل كارين في سبّورة صغيرة خريطة وأنهارا وتواريخ وولايات وطفق يتحدث ويتحرك ويضحك أحيانا بلا سبب واضح. تحدّث طويلا عن جاك كارتيي وكيف اكتشف الفرنسيون كندا في القرن السادس عشر وقال إن الإنجليز خطفوها من أيديهم سنة 1763. وتحدّث عن السكّان الأصليين وعن الثورة الهادئة و1960 ونحن أسياد على أرضنا وروني ليفيك واستفتاء تقرير المصير الذي فشل مرّتين في تحقيق استقلال الكيبيك عن كندا ودعانا لاكتشاف نهر سان لوران وجزيرة سانت إيلين ومتحف بوال آكايير ومغنّ إسمه بّول بّيشي وأشياء أخرى لم تسمح لنا لكنته الكيبيكية المعتّقة بتبيّنها... لاحظت أنهم يبالغون في الترحيب بنا. روبير وقبله كارين، ردّدا كلمة "مرحبا" أكثر من مرة. كلّما سألهما أحد يقولان له "بْيانْ فوني" قبل أن يبدآ في الجواب. وجدت الأمر طريفا. فيما بعد عرفت أن ذلك عاديّ جدا هنا. عندما تقول للكيبيكين شكرا لا يردّون عليك "لا داعي للشكر" مثل الفرنسيين، بل يقولون "مرحبا"، مثل الأمريكيين. شكرا ومرحبا ولا داعي للسرعة...... نهض الجميع دفعة واحدة وانقضوا على مائدة المشروبات. لم يكن ثمة كحول لحسن الحظ. لسوء الحظ، قال قيْس الذي أفاق واستأنف حماقاته التي تشبه ما يفعله أيّ سكير قادم من العالم الثالث. تحلّقت حولي أنَا وناطاليا وأزرا وسوزانا، وطفقت أشرح لهن كيف تصنع البلْغات في المغرب وأين يدبغ الجلد وكيف تكون رائحته، وهنّ ميّتات من الضحك. كان الجميع يتحدثون ويتمازحون وهم يعبّون

تنكات مشروبات غازية، رغم التعب الذي يتجول بحرية على الوجوه. اقتربت كارين من شلّتنا وقالت إنها تريد أن تقول لنا سرّا. تعجّبت كيف يمكن أن تكون لشخص تعرّفت عليه قبل ساعات فقط، في بقعة بعيدة من الكرة الأرضية، أسرارا يخصك بها! وأيّ سر هذا الذي سيقال لخمسة أشخاص دفعة واحدة؟ إنها كندا... قالت كارين، بلكنتها الكيبيكية المسلّية، إننا نبدو أشخاصا مرحين وتريد أن تذهب معنا، خارج وقت العمل، إلى علبة ليلية. لم نكن لنمانع بكل مواهب العربدة التي حبانا بها الله. بل إن أنَا صاحت: وييبي... وأظهرنا جميعا فرحة تشبه فرحة صبيان تقرّر أن يذهبوا لمخيم صيفي. نظرَت إليَّ ناطاليا فجأة وانفجرت ضاحكة. لا أعرف لماذا ضحكت أنا أيضا بعنف كأيّ أحمق. منذ مدّة وناطاليا وأنا نضحك هكذا، أحيانا كثيرة بلا سبب، كأننا مصابين بالهستيريا. ربما أضحكتنا لكنة كارين أو صيحة أنّا أو بلغتي السخيفة أو قيس الذي يتمايل من كثرة مادلق في بطنه من كحول... المهمّ أن الضحكة كانت عميقة وعالية وصافية: ضحكة كندية!

7
ليل سان ميشال

"تريدون أن تعرفوا الفرق بينكم وبين الفرنسيين؟
هم يعيشون الحياة ويزورون المتاحف، وأنتم تعيشون في المتاحف وتزورون الحياة!"

ج. لولاش

بقدرما ترى أحفاد الثورة الفرنسية يسْخرون من السماء ومن الغيب والكنائس، بقدر ما تجدهم شديدي الحرص على الوفاء لذاكرة القرون الوسطى. يحتفلون بمآثر العصور المظْلمة كتذكارات غامضة لفترة مليئة بالاستبداد. يرمّمونها ويزيّنونها ويسمّونها كنوزا أثرية. رغم العلمانية والعقلانية والحداثة، مازال ورثة عصر الأنوار يفردون مكانة مميّزة للكاتدرائيات والتماثيل واللوحات والمنحوتات الحجرية التي تنتمي لتلك العهود. في نوطردام في ساكريكور في سان سيلبيس في سان جيرمان... وفي كلّ كنائس الإكزاكون، تستطيع أن تشمّ رائحة الانحطاط القديمة. بإمكانك أن تقف أمام منْبر الاعترافات وتلمس خشب المقصورة الصغيرة حيث كان القساوسة يبيعون تذاكر الجنّة لحشود من الفقراء

والساذجين. تستطيع أن تتفرج على حقبة ميّتة من تاريخ الحضارة الغربيّة كما لو كنت في متحف للعصور. لا تكاد تخلو مدينة أو ضاحية أو حيّ في فرنسا من كنيسة أو كاتدرائية قديمة. لم تعد هذه المباني العتيقة تصلح لصلاة الأحد، أصبحت مجرد معلمات فنية يزورها سيّاح من كلّ جهات العالم. وتماما كما نطلق على مدننا وشوارعنا أسماء الأولياء والصالحين، من سيدي سليمان إلى مولاي بوعزة، ومن مولاي علي الشريف إلى الحاج قدّور، ومن سيدي حرازم إلى مولاي يعقوب ومن سيدي قاسم إلى مولاي بوسلهام... لا يجد الفرنسيون أدنى حرج في تسمية الشوارع والساحات والضواحي بألقاب الكهنة والقدّيسين: سان ريمي، سان جيرمان، سان ميشال، سان ليجي، سان سيلبيس، سان دوني، سان تروبي، سان سيباستيان... معظم أحياء فرنسا يلقي عليها قديسو العصور القديمة ظلالهم وسيوفهم وأسماءهم. الفرق بيننا وبينهم هو الفرق بين زوار متحف وبين مومياءات معروضة فيه. هم الزوار ونحن المومياءات. لقد انتقدوا أسلافهم بعنف وأخذوا منهم ما ينفعهم ثم حنّطوهم ليبقوا عبْرة للأحفاد، في الوقت الذي اعتصمنا نحن في الماضي وقرّرنا ألا نخرج منه مهما حدث. إخترنا أن نعيش في عصر واحد مع أجدادنا إلى ما شاء الله...

لكل حيّ قديسوه وثواره وجنوده المجهولون والمعروفون. ولكل شارع تفاصيله وحزنه وأحلامه وتاريخه الهادئ والصاخب والغاضب. لا أعرف لماذا أنتهي في سان ميشال كلّما همت على وجهي في هذه المدينة. يجرّني إليه باستمرار هذا الشارع الملتوي مثل حبل طويل في الدائرة الخامسة. من الجسر الذي يجاور نوطردام إلى ما وراء حدائق الليكسومبورغ. حين تكون ذاهبا في اتجاه الحدائق، تجد على يسارك

جامعة السوربون تجثم مثل فكرة حجرية هائلة. هنا صنعت فرنسا الحديثة. من هذا المختبر، خرجت أهمّ الأدمغة الفكرية والسياسية والأدبية الفرنسية. بناية عتيقة بالأسلوب القوطي، ظلّت مركزا للعلوم المسيحية منذ القرن الثالث عشر، قبل أن تشتعل المعرفة وينفذ إليها الضوء ويجدّدها المعماري جاك لوميرسيي في القرن السابع عشر، بطلب من الكاردينال ريشليو الذي ينام هادئا تحت سقف إحدى بناياتها. معلمة هادئة، بسيطة ومعتدة بنفسها. تنتشر حواليها المقاهي والمكتبات وساحة السوربون حيث يحتشد الطلاّب وتأتي فرق موسيقية لتعزف أنغامها تلقائيا بلا مواعيد أو تراخيص مسبقة. في ماي 1968 احتل الطلاب الغاضبون هذه الجامعة. جاؤوا من نانطير بالضاحية الشمالية واعتصموا في المدرجات ووسط الساحة، قبل أن ينتشروا على طول الشارع واضعين حواليهم المتاريس وجذوع الأشجار، رافعين راياتهم الحمراء وأحلام الثورة الوردية. هنا اندلعت المواجهات بين رفاق كوهن-بينديت وشرطة الجنرال دوغول المرتبكة، خلال إحدى الانتفاضات الأكثر إثارة في التاريخ المعاصر.

غير بعيد، يوجد مسرح لاهيشيت الصغير حيث تعرض مسرحية "المغنية الصلعاء" و"الدرس" ليوجين يونيسكو منذ أكثر من نصف قرن. بنفس الإخراج ونفس الملابس ونفس السينوغرافيا ونفس الممثلين. تجرفك الشوارع الضيقة فتجد نفسك في متاهة من المطاعم والفنادق والحانات. موسيقى صاخبة تخرج من محلات تشبه كهوفا سحيقة مزينة بالشموع والمنحوتات وأطراف الخنازير المشوية. أطباق من كل مطابخ العالم: إغريقية وصينية ومغربية ولبنانية ومكسيكية وإسبانية وإيطالية ويابانية... عند باب كل مطعم يقف شخص ببذلة أنيقة. يعلّق على شفتيه ابتسامة صفراء ويحثّ العابرين على الدخول لتناول وجباته "الرائعة"، بطرق لا

تخلو من استفزاز. وأنت تتجول في الحي اللاتيني، يصعب كثيرا ألا تتذكر مطاعم الطنجاوي في قلب مدينة الرباط العتيقة. حيث أطباق الكرعين والبيصارة والطجين والأسماك النتنة، والأشخاص الليليون الذين يستدرجونك للجلوس، ببزات بيضاء متسخة ووجوه ينخرها السهر والبؤس، وبابتسامات حقيقية.

من هنا مرّ رفاعة الطهطاوي بجلبابه الأزهري ودهشته الخلاقة. وأحمد فارس الشدياق الذي لم تسعه الأرض عندما وطئت أقدامه باريس لأول مرة في القرن التاسع عشر، فصاح مهللا:

هذه جنة في الأرض أم باريس ملائكة سكانها أم فرنسيس

وعندما تبدّدت دهشة الاكتشاف وكشّرت المدينة عن أنيابها، شتمها بنفس الأبيات كما يفعل أي شاعر عربي محتال:

هذه عبقر في الأرض أم باريس شياطين سكانها أم فرنسيس

هنا كان يتجول طه حسين واضعا كفّه في كف سوزان في بدايات القرن العشرين. يفتش عن حفنة ضوء يقذفها في ليل الشرق النائم. ومن هنا أيضا مر توفيق الحكيم ويحيى حقي وسهيل إدريس... والآخرون والآخرون. كلّهم تركوا خطواتهم في الحي اللاتيني ومضوا. كلّهم وقفوا ذات يوم في ساحة سان ميشال، حيث يرتّب العشاق من جميع الأعمار مواعيدهم. تراهم في كل وقت مشتتين يلتفتون في جميع الاتجاهات وينتظرون. يحدّقون في ساعاتهم أو يضعون هواتفهم فوق آذانهم كي يعرفوا أسباب تأخر أشخاص لا نعرفهم. هناك تلمح كيف تولد ابتسامة على محيّا مراهقة رأت صديقها قادما في وقت الموعد تماما. وترى الغضب يتسلّل رشيقا إلى وجه رجل أخلفت صديقته الموعد، للمرّة الثالثة.

وترى الانكسار والتفاؤل والحيرة والترقب والملل والخذلان والحزن والفرح... وترى المدمنين يعبّون خمورا رديئة من قناني حقيرة ويصرخون عاليا ويشتمون العالم. رتّبت عشرات المواعيد هناك. والتقيت كثيرا من الأصدقاء القادمين من المغرب. هناك رأيت مناضلين مغاربة يضحكون كمراهقين، ويلتقطون صورا مع صديقاتهم، دون كوفية ولا شارات نصر...

كلما شعرت بأنني بعيد ومخذول لا بد أن تقودني خطواتي إلى سان ميشال. الوقت متأخّر ومطر خفيف. أناس قليلون يعبرون. المحلاّت مغلقة. أحدّق في التنّينين الذين يقذفان الماء بلا توقّف وألاحق العصافير التي تخرج من قيثارة عازف كردي يتكئ على حائط مكتبة جيبير جون. النغمات المتصاعدة من القيثارة حزينة جدّا. تقطّع القلب إلى قطع صغيرة وتحرّك في العيون مياه راكدة. لا شك أنّه يحمل في ضلوعه حكايات حزينة. يغنّي للمتعبين والتائهين والمنفيين والغرباء. يغني للمشرّدين. لأنه كرديّ مشرّد بلا مستقبل وبلا بلاد. جلسته الهادئة ومظهره الأنيق يمنحانك طمأنينة غريبة. كأنك تعرفه. كأنّ بينكما أسرارا لا يعرفها أحد. بنظاراته العريضة وبذلته السوداء يبدو مثل طبيب محترم غادر للتوّ عيادته. طبيب المشرّدين في ليل سان ميشال، لا يخلف موعده أبدا مع صمت المكان. في نفس الزاوية يتكئ كل مساء على حائط المكتبة. يضع أمامه الحقيبة الكبيرة حيث يحفظ قيثارته. يجلس على كرسي صغير ويحوّل الحيّ إلى سامفونية مؤلمة. خدّرتني نغماته. لا أعرف متى ذهبت، كيف ركبت المترو رقم 6، ولم وجدت نفسي أنزل في محطة طروكاديرو... كأنني في سرنمة. مشيت بتثاقل في السرداب الطويل. صعدت الأدراج ببطء كما لو كنت صنما

يمشي. الشارع فارغ ونغمات الكردي ترتّب خطواتي. مررت بمحاذاة مسرح لاكولين. بدت لي ساحة طروكاديرو ورأيت برج إيفل واقفا. في المكان الذي تركته فيه آخر مرة، يحدّق في الزوار باستخفاف ولا مبالاة. شان دومارس يمتد بلا نهاية على مرمى البصر. منذ مدة لم أزر هذا الحي. نغمات الكردي بعيدة ومؤلمة وأضواء الشانزيليزي تغسل الفضاء. أغمضت عيني وحاولت أن أتذكر أول مرة وطئت رجلاي عاصمة النور. استرجعت الألوان والصور والأصوات التي كنت أراها وأسمعها في ذلك الأحد البعيد. زارتني الدهشة التي سكنتني عندما التقيت، أول مرة، بالأشجار والمطر والبنايات والطرقات المبللة ووجوه العابرين الباردة. دهشة الاكتشاف تمضي بسرعة البرق. بمجرد ما تتبدد، تنتهي السياحة وتبدأ الحياة. **تنتهي** الألوان وتبدأ العتمة. تصير البنايات مجرّد أحجار متراصة، عالية وصامتة. والأشجار نباتات بأوراق صفراء و خضراء و بلا لون. والشمس قرص باهت لا يظهر إلا نادرا. يكمل الحلم وتبدأ الحقيقة. ينتهي برج إيفل وتبدأ سان دوني. يبدأ كنس محطات القطار. البحث عن أوراق الإقامة. نظرات العجائز العنصرية. النوم في لا غار دوليون. مراقبو التذاكر. البوليس الذي يفتشك لمجرد أنّ ملامحك متعبة وملابسك وسخة، ولأنك أجنبي... حين تتبدّد الدهشة، تكشّر باريس عن قسوتها. تنتهي الجنة وتبدأ عبقر. تختفي الملائكة ويظهر الشياطين. الآن فقط أفهم لماذا غيّر فارس الشدياق أبيات قصيدته على ذلك النحو المضحك. أفهمه جيدا تحت هذا المطر الذي يبلّلني بلا رحمة على إيقاع قيثارة مؤلمة.

8

كئيبة أيام الآحاد

"لو أردت أن أعيش منتصرا وسط المهزومين لبقيت في المغرب، لكنني فضلت أن أعيش منهزما وسط المنتصرين... لذلك هاجرت!"

ج. لولاش

تعبت من الحياة على مشارف التشرد. أنهكني تسلّق قمم اليأس كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة. رفضت ولاية الشرطة تجديد بطاقة إقامتي السنوية، وها أنذا على حافة التحول إلى مهاجر سرّي يعيش في الطوابق التحتية للعصر. بلا حقوق و لا أوراق ولا ملامح. قالت لي موظفة وزارة الداخلية الذميمة من وراء مكتبها، عليك أن تقدّم شهادات تثبت أنّك فعلا جادّ في دراستك. بطاقة الطّالب وحدها لا تكفي لتجديد أوراق الإقامة. ينبغي أن ترفقها بشهادة حضور الدّروس. التافهة لا تعرف أنّ تحضير دكتوراه يقتصر على إنجاز رسالة فحسب و أن لا دروس في السلك الثالث! لكنها معذورة، يبدو أنّها غادرت حجرات الدرس سنوات طويلة قبل الباكالوريا. لذلك يحلو لها اليوم أن تنكّل بمن اختاروا الجلوس على طاولات المدرسة حتّى اهترأت مؤخّراتهم، خصوصا أولئك القادمين من بلدان بعيدة وفقيرة. شرحت لها، بأدب، أنّني أهيّئ دكتوراه وأنّ كل ما

علي أن أقوم به لكي أكون جادّا في دراستي هو إنجاز بحث من صفحات كثيرة. لا يهمّ إذا ما كان ذلك في المنزل، في المقهى أو في المرحاض حتّى! أصرّت بأنّه عليّ أن آتي بشهادة تثبت ذلك. أضافت بأنّ والي الشرطة هو من أعطى أوامره بتشديد المراقبة حول مدى جدّية كل أجنبي يدعي أنّه طالب من أجل البقاء فوق التراب الفرنسي. أنا أتبول على والي الشرطة وعلى الشرطة وعلى وزير الداخلية والتراب الفرنسي وعليك أيتها الغبية... قلت في نفسي، ثم ابتسمت وأنا أتذكر مثلا مغربيا حول الذميمات اللائي يجئن متأخرات. هي أيضا تأخرت قبل أن تنصحني بأن أكتب رسالة إلى الوالي مباشرة أشرح فيها مشكلتي و أنتظر... ضحكت. قلت إنني منذ سنوات، وأنا أكتب رسالة و أنتظر... أنتظر أن أتزوج من فرنسية و أغادر نهائيا هذا الكابوس السنوي في دهاليز ولايات الشرطة!

عندما غادرت المغرب في ذلك الأحد البعيد، كنت أشاهد المستقبل بالألوان. مرحا مثل لوحة رسمها ماتيس. كأنني خرجت من كهف نمت فيه ربع قرن، مع ملايين الأشخاص و أكثر من كلب. بمجرد ما حطّتني الطائرة في مطار أورلي اعتقدت أنّني عبرت النهر النتن إلى الأبد، و نشفت رجلاي. بعد بضع سنوات وانكسارات و هزائم، ما زلت أقف وسط حقل رماد. الشهادات التي جئت من أجلها هاهي في المحفظة كأي أوراق تافهة لا تصلح إلا للمرحاض. وها أنذا أكتب رسائلا و أنتظر: رسالة جامعية، رسالة إلى والي الشرطة، إلى القنصل المغربي، إلى ربّ العمل... و قريبا أكتب رسالة إلى الله. سأرجوه أن يخلّصني من هذه الورطة التي تسمى "الحياة"!

حين أبقى لوحدي مدة طويلة، تنفرد بي الهواجس و تحاصرني الفوبيات من كل جهة. أصير محطما كناج من حرب طاحنة، وأتخيل نهايات رهيبة: الإنتحار، الإدمان، الإجرام، العودة الخائبة إلى البلاد... تمرّ أمامي أفكار خبيثة تحمل فؤوسا وسكاكين. أفكار مخرّبة و سوداء. لكن معاشرة الناس أيضا تمنعني من التفكير بصفاء. عندما أجلس طويلا مع المغاربة المشرّدين، أصبح مثلهم. أمشي بلا توقف نحو الوراء. عندما أعاشر الأجانب، أحس بدونية قاتلة وتبدو لي الحياة فاترة وبلا توابل. كما لو كنت أمشي في شارع راق ونظيف لكن ينقصه أطفال يلعبون أمام عتبات البيوت، يتراشقون بالحجارة ويكسرون مصابيح الدرب. عادة تمر أيّام الآحاد كئيبة. رغم أنّ الأضواء لا تنطفئ في الخارج وباريس لا تنام. مثل امرأة مضيئة و رائعة، لا تتعب، لا تشيخ ولا تحتاج أبدا إلى استراحة. باريس مدينة طيبة، تفتح قلبها لكل أبناء العالم. فكرت في الخروج. منذ أن قابلت الموظفة الذميمة في ولاية الشرطة وأنا أسجن نفسي في الغرفة لأفكر في المستقبل. ألونه و أمنحه جغرافية ومعنى... ماذا سأفعل إذا لم أحصل على بطاقة إقامة جديدة؟ هل أكتب رسالة إلى والي الشرطة؟ إلى متى سأظل أكتب رسائل لا يرد عليها أحد؟!

تعبت. اليوم أريد أن أخرج، أن أبدّد قليلا من النقوذ. وأفعل كما يفعل الباريسيون. أريد أن أشعر أنّني آدمي ككل هؤلاء الأوغاد. ركبت المترو وذهبت إلى مونبارناس. كدت أجلس في مقهى لاكوبول، لكنني تراجعت. عبرت الشارع ودخلت إلى المقهى الذي يقابله، لوسيليكت. هذا مقهى محترم، مصمّم على الطريقة الأمريكية، يؤمه كتّاب وشعراء وفنانون. أما لاكوبول فهو مطعم قبل كل شيء، يخصص بضعة كراس في مدخله لمن يريدون شرب قهوة سريعة. لاكوبول بات اليوم معروفا

بأنّه مكان تأوي إليه العجائز لاصطياد شبان مغامرين. نساء في الخمسين والستين والسبعين يجئن إلى هنا بحثا عن شبابهن الضائع، بمساحيق مقرفة على الوجوه وابتسامات صفراء. يحدّثن شابا يقرأ جريدة في الركن عن الطقس أو يسألنه كم الساعة، ليجد نفسه بعد ساعات في سرير واحد مع جسد مترهل. لا كوبول شهرتها واسعة. فيما مضى كان يرتادها كبار مثقفي باريس. هنا كان يلتقي سارتر وكامي ودوبوفوار... يصوغون وجودية لفراغهم ولخواء العالم. قبل أن ينتصر الجنس والحريات و ماي 68 و يبدل المجتمع أعرافه ونخبه و أحلامه، و يبدّل المقهى زوّاره... لم أرد أن أجلس في لاكوبول تفاديا للشبهات. العجائز لا تعنيني، أريد فقط أن أشرب قهوة وأتأمل تفاهتي وسخافة العالم. طلبت قهوة وطفقت أنظر وراء زجاج المقهى. العابرون يمرّون بسرعة، متوترين كأنهم ذاهبون لحضور محاكمات حاسمة. باريس هكذا، الكل يجري، الكل يحث خطاه نحو مواعيد مصيرية. في سراديب المترو، على الأرصفة، في السوبرمارشيات، في أكشاك الجرائد، في محلات بيع الدخان، أمام السينما والمسارح والمعارض و المطاعم... زحامات لا تنتهي. مسحت المقهى بنظراتي. على يساري فتاة لا تتوقف عن الضحك. كأن الشابين الجالسين معها يحكيان لها نكتا خبيثة، من ريبيرتوار ما تحت الحزام. أمامها كأس خمر أبيض. عيناها زرقاوان وشعرها أسود ولا تكفّ عن القهقهة. التقت نظرتانا. أبهرني صفاء مقلتيها. واصلت القهقهة. تذكّرت أنني أيضا كنت أضحك هكذا مرارا قبل سنوات، عندما كنت طالبا بالرباط. كانت الحياة تشبه حلم ليلة صيف. مع أصدقاء ساذجين، لم نكن نفترق. كنا نعتقد أن الأرض من دوننا ستكفّ عن الدوران. بجرعات زائدة من الحيوية نتقافز ونسخر من كل شيء. نضحك كما الحمقى، في الأماكن العامة، على

أدراج المعهد، في الفصل، أمام بحر الأوداية الماكر، في حافلات الرباط البائسة... نقلّد بعضنا البعض و نضحك، نشتم بعضنا البعض و نضحك، من سخافة الأساتذة وكل الكبار... كانت الحياة حياة وأكثر. لا أعرف كم مضى اليوم على آخر ضحكة كهاته؟ منذ جئت إلى هنا لم أعد أضحك بالمرّة. تحولت قهقهاتي القديمة إلى مجرّد ابتسامات متردّدة و بلا معنى. افتقدت أشياء كثيرة. كل صباح أستيقظ وأجد تذكارا جميلا يموت. لم يعد لي أصدقاء. سقطت في أحلامي أبراج كثيرة. صارت الأيّام تشبه أرصفة طويلة، بنّية، صلبة، حادة، و ملساء. وعليّ أن أمشي، أن أعبرها حتّى النهاية. بلا حماس وبلا رغبات. الفتاة ما زالت تقهقه وأنا كلّما نظرت اتجاهها تلتقي عيوننا فأضيع في الزرقة. عليّ ألاّ أبالغ، قلت لنفسي. الفرنسيون يعتقدون أنّنا نحن المغاربيين مكبوتون. قد نبيع ملابسنا وكرامتنا من أجل النوم مع امرأة، كيفما كانت. لا أحب أن يراني الآخرون على هذا النحو. فتحت الكتاب الذي أحمل معي، لكن لا رغبة لديّ في القراءة. أخرجت ورقة وشرعت أكتب. قبل أن أخطّ أول حرف بالعربية شعرت بفزع غامض وغيّرت اتجاه الكتابة. لا، سوف أكتب من اليسار إلى اليمين. هنا في الغرب، إذا رآك الناس تقرأ كتابا من اليمين إلى اليسار تلمح الرعب يتجول في عيونهم، كما لو كنت تشغّل قنبلة أمام الملأ. أما إذا تجرّأت وكتبت بالعربية فيصبح الأمر رهيبا، وخطيرا جدّا. هذا ما تقرؤه معلّقا على شفاه الناس، خصوصا على وجوه العجائز. لا يخالجهنّ الشك لحظة في كونك تعمل لحساب "القاعدة". وقد يذهب ببعضهم الخوف ممزوجا بالحس الوطني والغيرة على أرواح الأبرياء، حدّ الوشاية بك إلى أقرب مركز للشرطة: لقد رأيناه رأينا مساعد

ابن لادن رأيناه يكتب بالعربية... ذلك ما حدث لإلياس خوري في فندق بمارسيليا عندما "ضبطه" بعض المحسنين متلبّسا بفاكس مكتوب بالعربية!

العربية في نظر الأوربيّين ليست إلاّ أداة تخريب. لغة برابرة غزاة لا يتقنون سوى إسقاط الأبراج وتفجير الأجساد وصداقة الموت. حتى ميشال تورنيي، الكاتب المستتير صديق المهاجرين، قال في يوميات صدرت مؤخرا في كتاب بأن اللغة العربية لم تنتج أدبا يذكر ما عدا ما كتبه طه حسين... ليس بالضرورة لأن تورنيي معجب بمؤلفات عميد الأدب العربي بل فقط لأنه من عائلة زوجته سوزان (تورنيي يناديه: "عمّي طه حسين"!)

أحيانا في المترو، نكاية بهؤلاء الأغبياء، أتعمد إخراج كل الجرائد العربية التي في محفظتي وأشرع في تقليبها أمام ذهول الجميع. في القرن العاشر والحادي عشر، كانت العربية لغة العصر، إنجليزية القرون الوسطى. أذكر أنني ذات يوم عثرت في خزانة مركز "جورج بومبيدو" على كتاب يحوي رسائل من الحقبة. حيث رهبان و قساوسة يتأسفون على مصير اللغة اللاتينية ويتحسرون على تهافت الأوروبيين على الحديث والكتابة باللغة العربية. اللغة راية المنتصرين لذلك ستبقى لغتنا منكسة سنوات، وربما قرونا أخرى، مادامت الهزيمة تعيش بيننا في دعة و اطمئنان.

لن أكتب اليوم بالعربية لأن حالتي النفسية لا تحتمل نظرات مريبة و محتقرة. أريد أن أشرب قهوتي في سلام وأنصرف. لكن، ماذا سأكتب؟ شرعت أخطّ الشتائم التي تعلمتها منذ جئت إلى فرنسا. الشتائم الأكثر سوقية، تلك التي لن تتعلمها أبدا وأنت في بلادك، لأنّها لا توجد في المدارس أوفي الكتب، بل في الشوارع وعلى أفواه شباب الضواحي

الغاضبين. وضعت لائحة نعوت بذيئة فاقت الثلاثين. أضفت إليها بعض الشتائم الكيبيكية المضحكة. أعلى الورقة كتبت مايلي:

«السيد والي شرطة باريس المحترم،

إعلم أنك لست محترما ولا هم يحزنون،

أنت مجرد......

(لائحة الشتائم)

مع خالص احتقاري »

9

نظّارات ديكارت

"العالم في نظري ينقسم إلى
صنفين: الأذكياء مثلي والناس...
المغرب بلد مليء بالناس!"

ج. لولاش

تسألني جدتي دائما في الهاتف: "كيف حالك يا ولدي مع الغربة في بلاد النصارى؟" أجيبها بضحكات متقطعة وكلمات من عائلة "اللهم يسّر ولا تعسّر". تغرقني بالرضا والدعوات وتشتم النصارى طويلا قبل أن تضيف إليهم أولاد الحرام الذين قد أصادفهم في الطريق. جدتي تخاف علي من الغربة لأنها لا تعرف للوطن غير معناه القديم. لا تدرك أن كل شيء قد تغير. الوطن عندها هو الأرض والماء والشجر (شجر التين والزيتون تحديدا) والجنود والصحراء والملك. عندما تشرع في الكلام عن الصحراء تشتم الجزائر طويلا وتدعو الله أن يفلّق رئيسها. بيد أنها تتدارك دائما بالقول "لكن الجزائريين رغم ذلك إخوتنا لأنهم مسلمون". لم تذهب جدّتي يوما إلى المدرسة، لكنها تتحدث مثل سفيرة لدى الأمم المتحدة مكلّفة بملف الصحراء. على الأرجح، بسبب خالي، ابنها الجندي الأشوس الذي يدافع عن الحدود. المشكلة في نظر الجدة هو السلاح. الجنود

المغاربة كثيرون في الصحراء. أسود حقيقيون أشجع من الشجاعة، لكن السلاح قليل: "بندقية واحدة لكل جنديين، هذا كل ما هنالك. الجنود لن يقضوا على البوليساريو بالعصي؟" تردد جدتي باستنكار. تشاهد أخبار القناة الأولى بانتظام وتحب مصطفى العلوي مثلما تحب خالي. كما لو كان هو أيضا جنديا حقيقيا في الصحراء. عندما يقول المذيع: "أيها السيدات والسادة، السلام عليكم" تلمع عيونها وتردّ بصوت مسموع : "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"... و يا ويل من يتحدث منا أثناء نشرة الأخبار! لم تسافر الجدة يوما خارج الحدود، غير أن ذلك لا يمنعها من أن تجزم بأن المغرب هو أحسن بلد في العالم. بمناظره ومائه وناسه وكرموصه وزيت زيتونه... جدّتي تتحدث عن جمال المغرب أفضل مما تفعله مديرة المكتب الوطني للسياحة. جدّتي هي من قال:

"لست تلقى كالمغرب الفذ أرضا

ولو اجتزت الأرض طولا وعرضا"

كل مرة أفشل في أن أقول لها: لا غربة في بلاد النصارى يا جدتي. الوطن ليس ما تعتقدين. لقد تغيّر كل شيء. مات محمد الخامس الذي رأيت وجهه في القمر. مات عبد الكريم الخطابي الذي كنت تهيّئين الطعام لرجاله في الجبل. مات علال الفاسي ومات عبد الرحيم بوعبيد ومات حتى الحسن الثاني الذي كنت تصرخين في وجه من يعارضه: "هذه بلاده، من لا يحبه ما عليه إلا أن يخرج منها". ومات جدي، المقاوم الطيب الذي عذّبه الفرنسيون بالكهرباء وعندما غادروا، رفض أن يوضع إسمه رفقة أسماء لصوص وجبناء في سجلات مندوبية المقاومة وجيش التحرير. رفض أن يتقاضى ثمن الوطن وعاش ومات شامخا كشجرة

زيتون... كيف أقنع الجدّة بأن الوطن تبدّل وبأن الغربة أيضا تبدّلت؟ هل أقول لها إن ثورة الإتصال غيرت كل شيء وأن العالم بات قرية صغيرة وفرنسا لم تعد منفى لأحد؟ لا أعتقد أن جدتي قد تصغي إلى كلام مصنوع من خشب كهذا. يلزمني أن أشرح لها ذلك بطريقة في المتناول. تلزمني الإستعانة بلائحة طويلة من الصالحين والراقدين في الأضرحة، قبل أن أخبرها في سياق الحديث، أن أحدهم قال ذات يوم بأن "الفقر في الوطن غربة والمال في الغربة وطن"... وحده شخص من عيارعلي بن أبي طالب الذي فتك بالغول وكان بضربة واحدة من سيفه يحز رأس ألف من الأعداء على اليمين وألف على اليسار، وحده يمكن أن يقنع جدتي!

أجل. فرنسا لم تعد منفى لأحد. مضى ذلك العهد الذي كان فيه المناضلون يفرون إلى باريس لكي يسقطوا نظام الحكم في الرباط. بعد عقود من التجوال في العواصم العربية وبعد سنوات طويلة من المقالب والخطط الفاشلة والإذاعات الشاتمة والحقائب الملأى بالنقود، لم يسقط النظام ولا هم يحزنون. سقط فقط مئات القرويين الأبرياء برصاص الجيش في كلميمة وخنيفرة وميدلت وتنغير وسقط آخرون في الدار البيضاء والرباط ووجدة، فيما سقط ثوار فرنسا في بذخ الحياة الباريسية. فشلت كل المحاولات الإنقلابية، بيد أن انقلابا خطيرا وقع في جيوب البعض وانقلابا أخطرحصل في الأفكار والمبادئ والكلمات وفي ترتيب الحروف، ورأينا بدهشة كيف انقلبت "الثورة" إلى "ثروة" ... بلاد النصارى اليوم هي وطننا يا جدتي. لا غربة في فرنسا ولا حقائب ملأى بالنقود، مع الأسف!

شخصيا، لا تخيفني الغربة ولا الوحدة. ما يزعجني حقا هو أن أكون بلا نقود. أن تكون مفلسا تتقاذفك الشوارع ويبللك المطر دون أن تتجرأ على وضع مؤخرتك فوق مقعد بأحقر مقهى. أن تبتسم لك شقراء فاتنة في مقصورة مترو ولا تتجاسر على دعوتها إلى سهرة صغيرة تليق بابتسامتها لأن جيوبك فارغة، فتضطر إلى إشاحة وجهك عنها كأي شاذ. هذا ما أخاف منه، هذه هي الغربة الحقيقية. أما الوحدة فقد تدربت على مقاومتها كما يجب. تعلمت أن أكلم نفسي في المرآة بدل أن أتحدث إلى أشخاص تافهين. أن أتأمل لوحدي، في صمت، سخافة العالم بدل الجلوس إلى أناس سخيفين... في بداية إقامتي الباريسية، وجدت فجأة أنني صرت بلا أصدقاء. كنت محتاجا إلى من يساعدني في المغرب وفي فرنسا لكي أمشي خطواتي الأولى في هذه العاصمة. كتبت رسائل كثيرة لأصدقاء أطلب مساعدتهم. معظمهم لم يجب ومن رد مشكورا اعتذر باقتضاب. هتفت لآخرين فأقفلوا الخط في وجهي. ضاع صوتي في صحراء الخذلان. البعض أخذ المبادرة واتصل بي من تلقاء نفسه، لكن لكي يطلب خدمة: تسجيلا بالكلية، كتبا، خراطيش سجائر، عطورا فرنسية ... أنا أيضا لم أرد. من اعتقدت أنهم أصدقائي تخلوا عني بكل جلافة. من اعتقدوا أنني صديقهم تركتهم بجلافة مماثلة. هكذا بقيت لمدة أترنح مثل نسر جريح فوق قمة يأس قبل أن أفهم أنني كنت أصارع مرضا خبيثا اسمه الصداقة. الآن شفيت منه تماما. أصبحت صديقا لنفسي فقط!

بدأت أرى الحياة على نحو جديد وأكتشف كم كنت غبيا قبل ذلك...

كم كنت غبيا وأنا أعتقد أن الصداقة هي "أن تقتسم آلام الآخرين وليس أفراحهم فقط". أنا الذي لم تفارقني يوما نظارات ديكارت كيف لم

أنتبه أن تخريفا من هذا القبيل لا يصلح إلا في جمهورية أفلاطون؟ كان يلزمني كل ذلك الخذلان وتلك الخسارات لكي أفهم أن الصداقة في الحقيقة مجرد التقاء مصالح وعواطف. هذا الإلتقاء ينبغي أن يكون متوازنا وإلا لم تعد هناك صداقة ولا هم يحزنون. من يغلّب المصلحة يصير انتهازيا ومن يغلب العاطفة يكون ساذجا. الآن أكتشف بغباء أنني لسنوات وأنا أسعى لحل معادلة مستحيلة. بسبب ذلك التعريف الرومانسي ظللت أغلب العواطف ومع ذلك لا أحب أن أبدو ساذجا. لهذا السبب، على الأرجح، انتهى رد فعلي بأن كان عنيفا مع الإنتهازيين. هكذا أنهيت علاقتي بأشخاص اعتقدت طويلا أنهم أصدقائي. شيّعتهم في مقبرة بعيدة دون أسف ثم طويت صفحتهم إلى الأبد. لاأحب أن أكون ساذجا!

لقد بت اليوم مقتنعا أن البشر ينقسمون إلى صنفين : عارفون ومغفلون، فاهمون وسذج، ثعالب وقطيع، حمير وراكبون... بصيغة أخرى هناك الأذكياء وهناك الناس. وأنا إلى وقت قريب كنت أنتمي إلى الناس. قبل أن أكتشف درجة غبائي ومقدار مكر الآخرين. لذلك قررت أن أصبح من الأذكياء.

الناس هم من يصدقون المبادئ والقناعات ويؤمنون بالأفكار والقيم. يمتثلون لها ويضحون بأعمارهم وبأجسادهم ومستقبلهم من أجلها، وقد يدخلون السجن أحيانا أو يموتون فداء لها. وإذا ما خرقوها، لسبب أو لآخر، فإن ذلك عادة ما يرافقه شعور قاتل بالذنب. أما الأذكياء فهم الذين يصنعون تلك المبادئ والقناعات والأفكار، ويفعلون عكسها تماما في حياتهم اليومية وهم مطمئنون. لأنهم يعلمون علم اليقين أن ما صنعوه من ترّهات بلا طائل ولن يوصلهم إلى القمّة. بل إنهم يروّجون للمبادئ

والقناعات بالضبط لكي يظل الناس في الحضيض ويصعدون لوحدهم كل القمم... هم الذين نادوا بالتعريب وروّجوا لمزاياه بين "الناس" لكنّهم أرسلوا أبناءهم ليتعلموا في مدارس البعثة والدول الأجنبية، هم الذين مدحوا الوطن واقتصاد الوطن ودعوا العمال المهاجرين إلى جلب العملة الصعبة إلى الوطن وعندما فتشنا عن هذه العملة لنرمم كسورهذا الوطن وجدناهم هربوها إلى حساباتهم في بنوك ومصارف العالم، هم الذين نظّروا للثورات والإنقلابات وأشعلوا الحرائق وعندما احترقنا بها بحثنا عنهم فوجدناهم قد فرّوا بعيدا وعقدوا صلحا مع الأعداء...

الأذكياء هم السادة والناس عبيدهم. الأذكياء وزراء ومدراء ورجال أعمال، والناس حراس سيارات وسائقو طاكسيات وموظفون نزيهون ومناضلون شرفاء ومعلمون ببذلات مخططة وشوارب سخيفة. الأذكياء يتبخترون داخل قبة البرلمان والناس يعتصمون أمام القبة. الأذكياء يترشحون للإنتخابات ويفوزون بالمقاعد والمجالس والرئاسات... لكن من يصوت عليهم؟!

...

الناس طبعا!

10
أعقاب سجائر مبللة

"يضعون فوق رؤوسهم قبعات مقلوبة يشتمون العالم وهم يرقصون"الهيب هوب" أو يدبجون أغاني "الراب" الحانقة، يرتدون أحدث تقليعات "نايك" و"أديداس" ويعيثون في أوربا فسادا... هؤلاء هم أبناء المهاجرين! "

ج. لولاش

كل شيء من خشب في هذا المكان : الكونطوار، الأرضية، الأعمدة، الكراسي الطويلة، السلالم التي تفضي إلى فوق، الموائد التي تشبه براميل مهملة في سفينة ملأى بالقراصنة... كلها، كلها من خشب داكن. أحيانا يخيل إلي أن أحاسيس الرواد نفسها من خشب. وإلا لماذا هذه النظرات الميتة التي تند عن كل شخص حدقت فيه؟

في آخر الليل يصير الجو أكثر حميمية لأن معظم الرواد يكونون مخمورين. يرقصون ويتبادلون الإبتسامات والقهقهات. أحيانا يتلامسون أو يتدافعون وهم يتلوون كثعابين واقفة على إيقاع الموسيقى والأضواء. لكن مزاجهم رغم ذلك يبقى باردا. لا تحس بنفس الحرارة التي تجدها في أماكن أخرى مشابهة يرتادها أمريكيون لاتينيون مثلا. كما في لابينيا، العلبة الليلية الموجودة قرب محطة غيتي، التي زرتها مرّتين رفقة صديقة

ميكسيكية إسمها ألما-روسا... البار إسمه اللونغ هوب، "تَوب" إنجليزي غالبية رواده من الأنغلوساكسون. يقع في موبير ميتياليتي غير بعيد عن الحي اللاتيني، بمحاذاة شارع سان- جيرمان بالدائرة الخامسة.

رغم الخشب الذي يملأ المكان -أو ربما بسبب الخشب- أحببت هذا البار. منذ أن قادتني إليه جوليا ذات ثلاثاء أحمق أصبحت وفيا لأخشابه. أجيء إليه على الأقل مرة واحدة في الأسبوع. جوليا إلتقيتها صدفة في مقصورة بالمترو رقم 10 القادم من بولوني في اتجاه غار دوسترليتز. كنت رفقة فؤاد، عائدين من إحدى نزهاتنا العبثية بين دروب وأزقة باريس. كنا نجلس في الفسحة التي تحدها أبواب المقصورة. فوق الكراسي الصغيرة التي تظل مطوية إذا لم يجلس عليها أحد. كانت جوليا تجلس أمامنا. كما العادة لم نكف، فؤاد وأنا، عن وضع المقالب لبعضنا البعض غير مكترثين بنظرات الراكبين. بعضهم كان يحدجنا بحنق وآخرون يبتسمون فيما معظمهم يدس وجهه في كتاب أو يحدق أمامه في لامبالاة مطلقة. فجأة، وقفت هنيهة في مكاني لأتأمل خارطة طرقية صغيرة معلقة فوق الباب، حتى أعرف في أي محطة علينا أن ننزل لنركب خطّا آخر في اتجاه مونبارناس حيث نريد أن نتسكع قليلا. عندما عاودت الجلوس، كان النذل فؤاد قد طوى المقعد بمكر فسقطت على الأرضية كأي بهلوان. تملكني خجل قاتل. لكنني بقيت مكاني ممددا رجلي على الأرضية كأن شيئا لم يقع والملعون يضحك. أغمضت عيني كي يذهب الحرج وأسترد شجاعتي لأخرج من الورطة. عندما فتحتهما وجدت الفتاة الجالسة قبالتي تضحك من أعماقها. نظرت إليها بغضب مصطنع وقد استعدت كامل وقاحتي: "لماذا تضحكين؟"

نزلنا في محطة جوسيو. نزلت معنا جوليا. قالت إننا مسليان وأنها تسكن غير بعيد قرب كاردينال لوموان لكنها محتاجة أن تضحك قليلا قبل أن تنام. قلت لفؤاد ساخرا: "أرأيت؟ ها قد حولتنا إلى قردة ترقص!" غير أن جوليا كانت تلقائية ووديعة. أمضينا معها أمسية جميلة. قالت إن عيد ميلادها الثالث والعشرين بعد غد ودعتنا لنشرب شيئا في اللونغ هوب وهكذا تعرفنا على المكان. اللونغ هوب "بّوب" شبابي. لايتوقف فيه الرقص والموسيقى والصخب طوال الأسبوع. الإثنين والخميس تنظم مسابقة في الغولفازور لفائدة الرواد. ما عليك إلا أن تأتي قبل السابعة مساء وتسجل إسمك في لائحة بيل، الإنجليزي الأشقر الذي يسير البار. رغم أنني شاركت عشرات المرات لم أفز ولو مرة واحدة. مرة ابتسم لي الحظ نصف ابتسامة فوصلت إلى نصف النهاية. فؤاد ابتسم له ابتسامة كاملة ذات خميس وفاز بالدوري. هزم لاعبين من جنسيات مختلفة: فرنسية وأمريكي وأسكتلنديان وهندي. الأسكتلنديان كادا ينفجران من الغيظ. كان أحدهما قد وعد صاحبه بأن ينتقم له بعد أن خسر مباراته ضد فؤاد، لكنه انهزم سريعا وبطريقة مضحكة. اكتشفنا أن جائزة الدوري عبارة عن عشر كؤوس ضخمة من الجعة الإنجليزية السوداء. فرح فؤاد كثيرا، خصوصا عندما عرف أنه ليس مجبرا على عبها في مساء واحد. إذ تسلم شيكا بعشر خانات يسمح له باحتساء الكؤوس وقتما أراد. قال إنه سيتركها للمساءات التي تكون فيها جيوبه نظيفة... لكنه انتهى بأن شربها دفعة واحدة في مساء واحد قبل أن يتقيأها على أثاث العجوز إسلان، التي يكتري لديها الغرفة!

فؤاد شخص محظوظ. أنا على يقين أنني ألعب الغولفازور أفضل منه وقد هزمته مرات عدة. لكنني أخسر دائما في اللونغ هوب، فيما يكون

الفوز حليفه. يفوز أيضا عندما يلعب الرابّيدو في مقهى لافونتين. مشكلة فؤاد أنه يلعب بمبالغ تافهة: أورو، اثنان، ثلاثة... لذلك يربح حصصا هزيلة دائما ويعض بنان الندم!

اليوم، لم يكن محظوظا البتة. أقصي في الدور الأول وخسر كل نقوده فوق الكونطوار. أنا أيضا خسرت كما العادة. عندما هممت بالإنصراف رجاني أن أبقى وأذهب للمبيت معه بغرفة العجوز إسلان لأنه يشعر بالوحشة. قلت حسنا لكن علينا أن نذهب الآن كي لانضيّع آخر حافلة. فؤاد بائع أوهام خطير لذلك حاول أن يقنعني بأن الحافلة مجرد فكرة في رأسي. وأن هناك سيارات فارهة وأنيقة في باريس تدعى "طاكسي"، مثلما هناك طريقة سهلة للوصول إلى البيت لا تتطلب أكثر من رفع إبهام اليد اليمنى عاليا في وجه أول سيارة تمر... كؤوس الجعة السوداء لعبت برأسه ولم يعد يعرف ماذا يقول: سيارة الأجرة هنا غالية جدا، ناهيك أننا في ساعة متأخرة وهو يسكن في نهاية الدنيا... أما الأوطوسطوب، فلن تجد في أوربا عاقلا واحدا يقف لعربيين مشردين في آخر ليل!

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا حينما أقنعته أخيرا بالإنصراف. قذفنا القطار E في محطة لوبليسي تريفيس. هممت بالجري في اتجاه موقف الحافلات غير أن حارس أمن المحطة أفزعني. كان يجرّ كلبا ضخما مكمم الفم مما اضطرني لأن أمشي على الأرض هونا. فؤاد بدا لامباليا. لا يخيفه الكلب ولا حارس الأمن ولا مرور آخر حافلة ولا أي شيء!

وجدنا محطة الحافلات فارغة إلا من الليل. لا أحد ينتظر. آخر حافلة مرّت منذ ربع ساعة. اللعنة. حتى عندما راودتني فكرة تبديد ما في

جيبي للوصول إلى البيت، اكتشفت أن لا طاكسي يذرع هذا الخلاء: "يبدو أن تلك السيارات الفارهة موجودة في رأسك فقط! " قلت لفؤاد معاتبا.

شرعنا نمشي في اتجاه البيت : لكي نصل علينا أن نمشي قرابة الساعة على الأقدام!

شتمت فؤاد والحافلات والليل وبونطو كومبو البعيدة... كلّما مرقت سيارة يلوّح لها بإبهامه، دون نتيجة طبعا. فجاة دس يده في جيبه واكتشف أنه بلا سجائر. كلّ محلات بيع الدخان والمقاهي والبارات كانت مغلقة. أخذ يضرب الأرض بحنق ويلعن الغبي الذي عنت له فكرة تشريع قانون يمنع وجود موزعات السجائر الآلية كما في هولندة وإسبانيا! طوال الطريق لم يتوقف عن السب والتجديف واستجداء العابرين القلائل الذين نصادفهم يتسكعون في الإتجاه المعاكس. كلهم كانوا يعتذرون. بعضهم كان يسبقنا ويطلب سيجارة قبل أن نطلبها منه. آخرون يؤكدون بمنتهى الجدية أنهم لايدخنون. فؤاد ينظر إلى الأرض ويتحسر على ليلة سيقضيها بدون سجائر. أعرف أنه مدخنة حقيقية، نادرا ما ترى أصابعه من دون سيجارة، لذلك لن يستطيع أن ينام هكذا. فجأة، عنت له الفكرة ذاتها التي تمر بخاطر كل مدمن حقير لم يستطع إلى الدخان سبيلا : التقاط أعقاب السجائر من الأرض!

لم أتمالك نفسي فانفجرت ضاحكا. كان يشتمني ويرمي الأعقاب بعدما يكتشف بيأس أنها مبللة ولن تشتعل. تهاطل مطر غزير هذا الصباح والأمس ويوم السبت والجمعة... مطر وقح سقط نكاية بفؤاد ليبلل الأرض ويفسد كل الأعقاب!

كان اليأس والتعب قد نكّلا بنا مليا عندما دنونا من البيت. الأعقاب القليلة التي لملمها تافهة ولايبدو أنها قابلة للإحتراق لكنه كان يمني نفسه

بها مبددا ما تبقى في جعبته من أوهام. فجاة، توقفت سيارة رونو5 بمحاذاتنا. على متنها مجموعة من المراهقين، بنات وأولاد، وتتعالى منها موسيقى الراي. لاشك أنهم عرب. بادرنا سائق الرونو بطلب عود ثقاب أوقدّاحة. همست لفؤاد : "هذه فرصتك لتحصل على سيجارتين أو ثلاث وتتخلص من الأعقاب الوسخة!" موسيقى الراي صاخبة والشباب لم يكفوا عن التصايح داخل السيارة. لاشك أنهم مخمورون، أو "مزطولون" على الأرجح. أخذ السائق القداحة من يد فؤاد، وقبل أن ينبس الأخير ببنت شفة، سمعنا السيارة تزعق، بغتة، وهي تنطلق كالسهم. تركتنا مشدوهين لانكاد نصدق ما حدث!

فؤاد صار يشبه تمثالا حجريا على حافة الطريق. تبادلنا النظر في ذهول... ثم انفجرنا ضاحكين: "الحيوان سرق قداحة... قداحة! " بقي فؤاد يردد مثل أحمق.

هؤلاء هم أبناء المهاجرين العرب، يسرقون أشياء تافهة ليعبروا عن رفضهم فلا يعبّرون سوى عن سخافتهم. يضعون فوق رؤوسهم قبعات مقلوبة ويحشون آذانهم بسماعات "الوولكمان"، ينصتون إلى أغاني الراي ويرتدون أحدث تقليعات "نايك" و"أديداس" ويعيثون في أوربا فسادا. فشلت كل مشاريع إدماجهم في المجتمع الفرنسي. رغم سياسة اليسار المتسامحة ومخططات اليمين الردعية ما زالوا يحرقون السيارات وينهبون البنوك ويتحرشون برجال الأمن ويشتمون العالم وهم يرقصون "الهيب هوب" أو يدبجون أغاني "الراب" الحانقة، ويسرقون قداحة فؤاد انتقاما لهوية مشوشة وتاريخ موتور...

وصلنا إلى البيت أخيرا متعبين بلا سجائر وبلا قداحة وبلا رغبة في الكلام. في المطبخ كانت ثمة علبة ثقاب، بمجرد ما رآها فؤاد فكر في

حل أخير: اقتحام الغرفة المجاورة ... هناك توجد سيغارات غليظة مغلفة بغشاء بلاستيكي موضوعة بعناية في صناديق صغيرة فوق الأباجورة. سيغار واحد منها فقط يكفي لوضع حد لمحنته الليلية!

نسمّي هذه الحجرة التي تقع جنب الغرفة التي يكتريها داخل فيلا العجوز،"غرفة المرحوم". لأنها تضم أشياء زوج إسلان الذي ذهب إلى السماء منذ سنوات. كل شيء داخلها يوحي بالماضي. عندما تدلف إليها تحس كأنك تسافر عبر الزمن : صور الزوج القديمة بالأبيض والأسود وسط إطارات عتيقة تذكر بصور ضحايا الهولوكوست في البرامج الوثائقية الكثيرة التي تتحدث عن النازيين. الأثاث تفوح منه رائحة الموت والسنوات والجدران والألوان الباهتة والهدوء الذي لايعادله إلا هدوء الموت السرمدي... مدام إسلان تثق في فؤاد لأنه فتى مؤدب وذكي، كما تقول، وعلاوة على ذلك يتابع دراسات عليا في القانون، لذلك تترك الغرفة مفتوحة. بيد أنه كأي مغربي محتال يلبس عشرات الأقنعة في اليوم الواحد، يدلف إليها كلما احتاج إلى ذلك. بل مرة عندما زاره أحد الأصدقاء رفقة زوجته جعله ينام في غرفة المرحوم! وهاهو الآن يتآمر على سيغاراته... لاشك أن زوج إسلان كان شخصا مهما توفي قبل أن يحول هذه الأصابع الغليظة من التبغ إلى دخان ساحر في السماء. خذله جسده وبقيت السيغارات هنا تدل على حضور وازن وهام. نصحت فؤاد بأن يعدل عن فكرته الحمقاء، دون جدوى. كان مصمما... لكن خيبته كانت كبيرة وهو يكتشف أن باب غرفة المرحوم مغلقة!

حسنا فعلت مدام إسلان، قلت له." لن أستطيع النوم"، ردد بيأس، " سوف أخرج". أغلق الباب وراءه. تركته يدبر أمره مع الليل والسجائر والحظ العاثر وارتميت على السرير.

11
عندما يبكي الرجال

"لا فرق بين المناضل والمهاجر:
كلاهما تضطره الظروف يوما إلى
الدخول في السرية"
ج. لولاش

رأيتهم يطرحونه أرضا. كانوا ثلاثة: فتاة وشابان. على رؤوسهم خوذات زرقاء. ظهره على باب حديدي، فيما يده مشدودة بطوق إلى يد أحدهم. الثلاثة جاثون على ركبهم وهم يحيطون به. بدا المسكين مسالما ومطواعا. الفتاة تتحدث في جهاز لاسلكي. بينما هو يبكي ويصيح: "لم أفعل شيئا...اتركوني... لم أفعل شيئا". فضحته جلدته. يشبهني. عربي. مغاربي... لا يبدو في المشهد أثر لسرقة، ولا لاعتداء أو ضرب أو شجار. لا أعتقد أن ثمة جريمة حصلت. أغلب الظن أن دورية الشرطة كانت في جولة اعتيادية وعندما رآها صاحبنا ارتبك. ربما حاول الفرار، لذلك أمسكوا به وطفقوا يبهدلونه على ذلك النحو... منذ انهارت حكومة اليسار، وسقط ليونيل جوسبان على الحلبة السياسية كبطل إغريقي، لم يكف اليمين الحاكم عن استعراض عضلاته الزرقاء. في الشوارع وفي محطات المترو والقطارات وفي المطارات والضواحي الخطرة، يوميا

يتجول عشرات من أفراد الشرطة بغطرسة رفقة كلاب مخيفة مدجَجين بالبنادق والرشاشات. تسمى هذه الدوريات "شرطة القرب". مهمتها الرسمية حفظ الأمن في الضواحي الخطرة، لكنها في الحقيقة لا تفعل شيئا آخر غير التنكيل بالمهاجرين. الأجانب في أعين أصحاب الخوذات الزرقاء مجرد مجرمين متسترين دخلوا التراب الفرنسي بطريقة غير قانونية. لذلك ينبغي الاهتمام بهم. كلما لمحوا وحدا، يحدقون فيه بعجرفة واستفزاز. إذا ارتبك يجري تفتيشه من رأسه حتى أخمص قدميه بطريقة مهينة. أما إذا هرب، فلن يكون مصيره أفضل من مصير الشاب الذي يصرخ يائسا بين أيديهم. أحيانا، يكفي أن تكون ملابسك حقيرة أو تبدو عليك علامات التعب لكي تثير شهية عصابات الشرطة!

كان ثمة فضوليون قليلون يتتبعون المشهد بحذر دون أن يتوقفوا عن المشي. الساعة تجاوزت الثانية عشرة زوالا بقليل. كنت خارجا من محطة مترو بيَار كيري. عوض أن أنحدر نحو البيت، بقيت قرب موقف الباصات كما لو أنني أنتظر الحافلة. فقط كي أتمكن من متابعة ما سيجري. فجأة تعالت صفارات الإنذار: ظهرت سيارتا شرطة تسيران بسرعة جنونية كما في مشهد مطاردة على الطريقة الأمريكية. أخذ الثلاثة يلوّحون لزملائهم، دون أن يكفوا عن تطويق الشاب. كخخخخخخخخخخخخخخ. توقفت السيارة الأولى إثر ضربة فرامل حادة. كخخخخخ. توقفت الثانية.

روّاد مقهى مجاور وبعض العابرين استداروا واشرأبوا بأعناقهم ليتفرجوا. نزل أكثر من عشرة أفراد، جميعهم يرتدون اللباس الأزرق المخيف. بعضهم كان يحمل لا سلكيا كبيرا أو هراوة أو رشاشا. بحركات مبالغ فيها هرعوا نحو "المجرم" كما لو أنه ينوي الفرار، رغم أنه هامد في مكانه!

المشهد كان حزينا ومضحكا في الآن ذاته. مسرحيتهم عرقلت المرور وأثارت حنق أصحاب السيارات. زعيق منبهاتهم ملأ الفضاء. تحلق فيلق الشرطة حوله. جرجروه. أدخلوه إحدى السيارات. وانطلقوا في موكب أمني صاخب على إيقاع صفارات الإنذار...

شيعتهم مذهولا ثم بصقت بغضب: الأوغاد... لماذا يحلو لهم أن ينكّلوا بنا هكذا؟ لا شك أنه مشرد بلا أوراق. لذلك ارتبك عندما رآهم فأمسكوا به. حظه العاثر جعله يقع بين أيديهم. لكن، ما كان عليه أن يبكي هكذا! فكرت، كان من الأجدر أن يتحمل قدره في صمت ... أليس رجلا؟ الرجال لا يبكون. لذلك تكون دموعهم مؤلمة عندما يفعلون! رجل في مقتبل العمر يبكي فقط لأنه قادم من بلاد بائسة. بلاد سكانها "مجرمون" إلى أن يثبتوا العكس. ربما فر من جحيم حرب أهلية ومن بيلدوزيرات رهيبة تجرف المستقبل. هارب من جوع ومن فقر ومن تشرد ومن يأس... ليسقط بين أيدي هؤلاء الأجلاف. المهاجرون بالنسبة إليهم مجرد حثالة، "راكاي"، فئران بيضاء تصلح لاختبار الخطط الأمنية الجديدة. ربما بكى لأنه فكر في أمّه. أو لأنه شاهد مستقبلا ورديا يتحطم كمزهرية ارتطمت بالأرض... انتشلني من تداعياتي إفريقي ثخين بمحفظة أنيقة ينتظر الحافلة، أو يصطنع الانتظار مثلي: "كل هذا العدد من البوليس من أجل شخص واحد! " تساءل مستنكرا، قبل أن يضيف: " هذه عبقرية اليمين، يعتقدون أنهم بهذه الطريقة سيقضون على ظاهرة انعدام الأمن التي أفشلت حكومة اليسار". هززت رأسي دون أن أنبس ببنت شفة. أردف الإفريقي: "لكن أين يكون كل هؤلاء الجبناء عندما يضرب الأقوياء! "

ذهبت إلى البيت دون أن أعرف من هم هؤلاء الأقوياء ومتى يضربون، ودون أن أعرف إن كنت سأستطيع النوم هذه الليلة بلا كوابيس. لم تفارق ذهني صورة الشاب بين أيدي الشرطة: شعره الممشط بعناية. ملابسه النظيفة. ذقنه الحليقة. ملامحه التي تشبهني. ذله. دمعاته. صيحاته المؤلمة: "لم أفعل شيئا... لم أفعل شيئا!" إذا كان بلا أوراق، لا شك أنه سينتهي مقيدا على مقعد بأول طائرة في اتجاه البلاد. سيعود إلى البيت دون حقيبة. يحمل معه ذلَ الرحلة وخيبة المصير. كيف سيحكي خساراته للعائلة؟ كيف سيسلم على رفاق الدرب؟ ماذا سيقول لنفسه عندما ينظر في المرآة؟ فكرت في مصير بعض أصدقائي الذين لا أوراق لهم. وفي مصيري... لا أحد في مأمن هنا ما لم يحصل على جواز سفر أحمر. بين عشية وضحاها قد تجد نفسك مهاجرا سريا. العيش في فرنسا مثل العمل السياسي، قد يبدأ علنيا وينتهي سريّا. أشخاص كثيرون أتوا من أجل الدراسة. حصلوا في البلاد على تأشيرة تسمح بإقامة طويلة، لملموا حقائبهم وأحلامهم ثم جاؤوا. بعد عام أو عامين اضطروا إلى الدخول في السرية. سكنوا في غرفة واحدة مع الخوف والحذر والندم. إجراءات الحصول على بطاقة الإقامة لا تكون صعبة في السنة الأولى. يسهل توفير الأوراق المطلوبة أو تزويرها إذا اقتضى الأمر: تسجيل بالجامعة، ورقة تثبت أنك فتحت حسابا بنكيا، شهادة سكنى وأوراق تبيَن مواردك المالية طيلة السنة الدراسية... ثم تقف في طابور طويل مع الطلبة الأجانب أمام مبنى ولاية الشرطة.

مطلع السنة الثانية، تبدأ المشاكل. مع شروع مصالح الولاية في عمليات المراقبة والتدقيق: عليك أن تدلي بنتائجك الدراسية لكي تبرهن

أنك جئت فعلا من أجل الدراسة لا من أجل شيء آخر كالعمل أو البحث عن زوجة. أن تقدم بيانات البنك الشهرية لكي يتأكدوا أن المبالغ التي ادعيت أنها ستملأ حسابك لم تكن مجرد أكذوبة، ولكي يطمئنوا أنك لم تزاول أعمالا سوداء، من دون رخصة شغل... وما أدراك ما رخصة الشغل ! علاوة على ذلك، يجب أن تدلي بوثائق مماثلة لما أدليت به السنة الفارطة. هذه الإجراءات المعقدة، هي ما يجعل كثيرا من الطلبة يفضلون الدخول في السرية.

عندما تصير بلا أوراق تبتلعك متاهات بلا حصر وتعيش في سراديب باريس. تخاف من كل شيء وتقتات على أي شيء، تماما كأي جرذ. جميعنا في هذه البلاد قد نتحول إلى جرذان حقيرة. جميع الطلبة. عندما تنهي دراستك أو تفشل فيها أو تتخلى عنها، تتخلى عنك أوراق الإقامة. عندما لا تجد من يتدبر لك شهادة سكنى أو لا تستطيع أن تبرر بأن مبلغا يفوق 450 أورو من عمل مشروع (أي برخصة شغل) أو من مساعدة عائلية يدخل حسابك كل شهر... تدخل في السرِية. أنا نفسي مهدد مع بداية كل عام. إذا خذلتني ورقة واحدة سأجد نفسي في الجهة الأخرى للحياة. في الحضيض، مع المشردين والمنبوذين. سيصبح مصيري مشابها لمصائر من تكدسوا في قارب صغير وعبروا المضيق في غفلة عن الأمواج والحرس المدني. كلما شارفت بطاقة إقامتي السنوية على الانتهاء، يستبد بي سؤال مقلق وقاطع كشفرة حلاقة: وإذا رفضوا تجديد أوراق إقامتي ماذا أفعل؟

في اليوم الذي يسبق زيارتي لولاية الشرطة، عادة ما أقضي ساعات طويلة في المرحاض. ليس لأنه أنسب مكان لتأمل المستقبل في

هدوء، كما قد يظن بعضكم، بل لأنني ببساطة أصاب بإسهال حادّ. تتملكني رهبة قاتلة تذكرني بالرعب الذي كان يتنزه بحرية في أحشائي وأنا تلميذ صغير يستعد للذهاب إلى حصّة الاستظهار. لم تكن المدرسة في تلك الثمانينات القاسية تشبه مدارس اليوم. كانت أقرب إلى معتقلات سريّة مخصّصة للأحداث. تحتلها عصابات جلّادين ببذلات مخططة وربطات عنق سخيفة يلوّحون بأغصان سفرجل طويلة، كنّا نسيهم معلمين. ينكّلون بنا في حصة القرآن والحساب والقراءة والقواعد والإملاء، إرضاء لنزوات غامضة. يدخّنون "أولمبيك الزرقا" و"كازا سبّور" داخل االفصل ويشتمون آباءنا وأجدادنا وديننا وصحون مطابخنا ويتفننون في ابتكار أساليب التعذيب. كل يوم يحوّلوننا إلى ببغاوات تستظهر أشياء لا تفهمها نزولا عند سادية ذوي البذلات المخطّطة. كان علينا أن نتدرب على العيش مع الرعب والإسهال والكوابيس والشتائم وأغصان السفرجل وأن ندرس ونتعلم ونكبر... وقد كبرنا ونجحنا ويا للمعجزة!

أتصور أحيانا أن كل مشاكلي وكل الخسارات التي تلاحقني سببها عاهات نفسية مستديمة ورثها لي إرهاب المدرسة المغربية. من أعلى قمم الغربة واليأس يحدث أن أفكر في العودة ورفع دعوى قضائية ضد وزارة التربية الوطنية وضد الحكومة وسأكسبها. لكن عندما أعود إلى رشدي ألعن الشيطان. أستحضر رعب ولاية الشرطة وأضحك من غبائي وأصرف النظر. دعك من الماضي يا فرويد، إرهاب ولاية الشرطة موضوع راهني وجدي تماما. لكي تجدد أوراق الإقامة، عليك أن تصاب بإسهال حاد وأن تضع في محفظتك رزمة غليظة من الوثائق التي جعلتك ترقص أياما وليال قبل أن تلملمها. بعد ذلك، عليك أن تقف مع الطلبة الأجانب المتكدسين بشكل اعتباطي أمام ولاية الشرطة وتنتظر دورك. ولن يأتي

أبدا إذا لم تقض ليلة على الأقلّ أمام الولاية، تحت المطر والبرد في عز شتاء لايرحم. طابور ولاية الشرطة لا يقل طولا وسخافة عن طابور طلب التأشيرة في البلاد. فيه يلتقي أشقاء من أعراق وألوان مختلفة، ولدتهم أم واحدة إسمها "الهزيمة". من أوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية وإفريقيا السوداء ومن الهند والصين والبلدان العربية، يأتي الشباب ليتزاحموا استجداء لعطف المنتصرين، لعلهم يسمحون لهم بالإقامة على أرضهم بعضا من الوقت. بطاقة الإقامة ليست في آخر المطاف سوى صيغة معاصرة للورقة التي كانت، فيما مضى، تثبت أن عبدا ما قد صار حرا. والمهاجر السري ليس إلا عبدا آبقا. لذلك سيظل مطاردا ويتعرض للإستغلال والتنكيل والتحقير. وإذا ما ألقي عليه القبض ستتم إعادته إلى أسياده في البلد الذي جاء منه. بكل بساطة!

12
رسالتي إلى بريجيت باردو

"ماجدوى جان دارك والثورة الفرنسية وماجدوى ماي 68 والبانتيون وساحة لا باستيي... إذا كان الطالب الأجنبي في القرن الواحد والعشرين مجبرا على النوم ليلتين متتالين تحت البرد، من أجل الحصول على بطاقة إقامة فوق هذه البقعة من الأرض؟ !"

ج. لولاش

اشتكى كثير من الطلاب إلى الوالي بسبب مسخرة طابور مركز الشرطة الطويل. كتبوا رسائل تشرح كيف أن الأجانب أيضا بشر حتى وإن كانوا قادمين من بلدان فقيرة. حتى وإن كانت عظام وجوههم بارزة من جراء سوء التغذية وملامحهم متعبة بسبب النقص في النوم. وحتى وإن كانوا يرتدون ملابس حقيرة ويتحدثون لغات متوحشة لايفهمها الفرنسيون. إنهم بشر. وفرنسا، في آخر المطاف، بلاد حقوق البشر. وإلا لماذا كل هذه التماثيل والنصب التذكارية التي تملأ الساحات والحدائق العمومية وباحات مرافق الدولة. تماثيل مونتيسكيو وروسو ودوما وموليير وديكارت وفولتير وباستور وباسكال... وسواهم ممن قالوا بلا لبس إن

أرض البشر لكل البشر. أولئك الذين آمنوا بالإنسان. بعقله وقلبه ونبله وكرامته وحريته في الحياة والتفكير والكلام... والتنقل طبعا؟ ما جدوى جان دارك والثورة الفرنسية وما جدوى ماي 68 والبانتيون وساحة لا باستيي... إذا كنا نحن في القرن الواحد والعشرين، مجبرين على النوم ليلتين متتالين تحت البرد، من أجل الحصول على بطاقة إقامة فوق هذه البقعة من الأرض، فقط لأننا أجانب وفقراء؟ وأين اختفى الثلاثي الخطير الذي يحرس الجمهورية: الحرية والمساواة والإخاء ؟

أنا لم أكتب إلى الوالي شيئا. بصراحة، لأنني لم أتعود الاحتجاج على السلطة، لا في بلادي ولا في بلاد الآخرين.

أنا مجرد إنسان بسيط يطلب السلة بلا عنب. مجرد شخص جبان تخيفه قبعة أحقر شرطي. ثم إنني أكره الحلول الجماعية! الحياة مسألة فردية ومصير شخصي، ولست مستعدا لأن أشاركه مع أي كان. لذلك فكرت في حل يليق بي. عوض أن أراسل الوالي لأحتج وأحصد ما لا تحمد عقباه، لم لا أكتب رسالة إلى "بريجيت باردو" وأستعطفها أن تفعل شيئا من أجلي؟ ! إنها امرأة شجاعة وذكية ورقيقة تدافع ببسالة عن حقوق الحيوانات، وأنا لست في آخر المطاف سوى قرد فر من قفص، لست سوى حمار يحمل الأثقال دون حاجة إلى بردعة.

أنا كلب بلا أنياب، أنا دجاجة مبللة... فلتشملني رعايتك أيتها الجدة بريجيت. أنا حيوان أليف فررت من غابة بعيدة حيث القوي يفترس الضعيف بلا رحمة. هربت من الفهود و النمور ومن السباع والضباع ومن الثعالب والذئاب وبنات آوى. هربت من الأفاعي والعقارب والتماسيح وودّعت الأكباش والإوزات والبقرات والأرانب والتيوس والحمامات، ولذت بك أيتها الجدة الحنون. لا تتركيهم ينكلون بي هكذا.

أرجوك، باسم الدلافين والنعامات والكونغورو والكوالا، باسم جدّنا الديناصور وجميع الطيور الناذرة والحيوانات المهددة بالانقراض، إفعلي شيئا من أجلي. أعرف أنك تكرهين الأجانب. العرب منهم على الخصوص، وتحديدا المغاربيين. أنا أيضا أكره هؤلاء الوحوش. لأنهم يضربون إخواننا القطط. ويجوعون عشيرتنا من الكلاب. ويقتلون فلذات أكبادنا من الفئران والجرذان والسحليات والصراصير. ناهيك عن مجزرتهم الرهيبة كل سنة، التي يروح ضحيتها الملايين من أصدقائنا الأكباش والحملان البيضاء البريئة. إنهم وحوش بلا قلب أيتها العزيزة بريجيت، ونحن دجاجات مبللة ترتعش أمام ولاية الشرطة. إجعليهم يحسنون معاملتنا أيتها الجدة الطيبة.

النجدة. النجدة.

قق قوق قووق.

هاو هاو هاو.

مياو مياو مياوو....

في السنة الموالية، اختفى الطابور السخيف أمام مركز الشرطة، وصار تجديد بطائق الإقامة يتم خلال مواعيد تؤخذ عبر الإنترنيت. لا أعرف إذا ما كان ذلك بفضل الشكاوى التي ذهبت إلى الوالي أم لأن العجوز باردو تبنت في النهاية الدفاع عن حقوق مابات يعرف في عالم الحيوان بفصيلة NEAM *(الفصيلة* الجديدة من الحيوانات المهاجرة). المهم، من الآن فصاعدا ما عليك إلا أن تدخل موقع ولاية الشرطة على الشبكة www.prefecture-police.fr على صفحة الاستقبال، ومن بين السطور الكثيرة وداخل الجداول، تختار كل مرة ما يتناسب مع وضعيتك

ثم تضغط عليه إلى أن تصل إلى صفحة بها مجموعة من الخانات الفارغة. تسجل في الخانات الصغيرة رقم بطاقة إقامتك وتاريخ استلامها وأوان انتهائها، قبل أن تكتب اسمك وتختار اليوم والساعة المناسبين، حسب الأوقات الشاغرة. بعد ذلك تطبع الورقة التي ملأت وتحتفظ بها، لأنها تصبح بمثابة الاستدعاء الذي سيسمح لك باجتياز باب الولاية الحديدي دون أن ينهرك الشرطي الوقح الذي يحرسه. أخذت موعدا يوم الخميس 17 أكتوبر على الساعة الثالثة بعد الزوال. في صباح ذلك اليوم توجهت إلى الجامعة. نسخت كل الأوراق المطلوبة. وضعتها في محفظتي التي انتفخت بشكل غريب. دخلت إلى مخدع فوتوماتون كي ألتقط لوجهي صورا بالأسود والأبيض كما طلبوا. الحقراء. لا يريدون وجوها ملونة، يريدون مهاجرين بالأبيض والأسود! ربما لأنهم يعتبروننا قادمين من أزمنة تسبق ظهور الصور الملونة. أو فقط لكي تزداد ملفاتنا سخافة وتكون أكثر إثارة للضحك حينما يتأملونها جماعة. أخمّن أن تسليتهم الوحيدة في دهاليز ولايتهم الكئيبة هي أن يسخروا من مصائرنا العبثية على تراب بلادهم. ولا شك أن صورنا بالأبيض والأسود تجعلهم يستلقون على ظهورهم من شدة الضحك، خصوصا أننا في غالب الأحيان نكون مفزوعين عندما نلتقط تلك الصور فنبدو مثل ناجين من كارثة!

ركبت المترو رقم 7 من محطة سونسيي دوبانتون في اتجاه ساحة إيطاليا. هناك، يفترض أن آخذ الخط رقم 6 في اتجاه شارل دوغول إيتوال لأنزل في كامبرون حيث توجد ولاية الشرطة. الساعة كانت تشير إلى الثانية والنصف. تجمع حشد كبير من الركاب على رصيف المحطة. تضايقت قليلا، لأنني، داخل المترو، كنت أنوي الاطمئنان مرة أخيرة أنني أحمل معي جميع الأوراق المطلوبة. مستحيل أن أفعل ذلك وسط هذا

الزحام ! لكنني قلت لا بأس. سأطمئن على الوثائق عند باب الولاية. المهم أن أصل في الموعد. محطة كامبرون لا تبعد عن هنا أكثر من ربع ساعة بواسطة المترو. غير أنني انتظرت طويلا. خمس دقائق. عشر دقائق. ربع ساعة... دبّ القلق. صرت أنظر للساعة بتوتر وأتمتم بكلمات بذيئة. أخيرا وصل المترو يجرجر عرباته مثل شيخ هرم. هممنا بالصعود، بيد أن مكبر الصوت هتف عاليا ما معناه أن القطار لا يحمل مسافرين. لم أصدّق ما سمعت. على الأرجح، لم أرد أن أصدقه. لذلك صعدت إلى العربة. غير أنني سمعت صوت السائق هذه المرة يردد بصوت واثق:

«Je répète, ce train ne prend pas de voyageurs. Ce train ne prend pas de voyageurs. Tout le monde est invité à descendre ! »

نزلنا. اللعنة عليكم يا أولاد الكلبة. تريدونني أن أصل متأخرا إلى الولاية. أن أضيع الموعد وأبقى بلا بطاقة إقامة. أن أتحول في النهاية إلى مهاجر سري، هذا ما تتمنونه!

خرجت بسرعة من المحطة. سآخذ سيارة أجرة. ليس هناك حل آخر. سأتألم قليلا وأنا أفتح حافظة النقود في نهاية المشوار. لكن الحياة هكذا: لذة وألم، فرح وشجن، بياض وسواد، نهار وليل، مترو وطاكسي... بقيت أعدد لائحة الأضداد لعلني أواسي نفسي وأداري الخسارات التي داهمتني من كل الجهات. أناس كثيرون تكدسوا في أدراج المحطة، على غير العادة. بذلت جهدا خطيرا لكي أصل إلى الطوار المقابل. رفعت إبهامي في وجه أول سيارة أجرة وركبت في المقعد الخلفي للميرسيديس البيضاء، كأي أرستقراطي مفلس. لكنة السائق وهو يسألني عن وجهتي

ذكرتني بصديقي فلورين، الرسام الروماني الذي تزوج أكينا اليابانية وهاجر معها إلى بلادها. لاشك أنهما الآن سعيدان يقضيان أياما جميلة في طوكيو. فلورين شخص محظوظ لأنه تزوج أكينا وأنقذ مستقبله. كان مترددا، لكنني نصحته مرارا بأن يفعل. لو لم يتزوج لعاد إلى بلدته الحقيرة كلوج ليرسم لوحات من الدرجة الثانية ويشتم الوقت والشيوعية والرومانيين. وحتى لو بقي هنا لوحده، كان سيسقط في المستنقع ذاته الذي أحاول الخروج منه الآن، بلا جدوى! السائق أيضا أشقر مثل فلورين، لكنه أكبر منه سنا. قلت له: "زنقة "ميوليس" من فضلك، حيث ولاية الشرطة". أدار عداده وانطلق. بعد صمت قصير سألني إذا كان المترو ما يزال عاطلا. أجبته نعم. الطاكسي يمشي ببطء شديد. أمامه صفّ طويل من السيارات. جميعها تمشي وئيدة كأنه موكب سلاحف من حديد. من حين لآخر كان السائق يهز كتفيه ويتمتم كما لو ليعتذر عن بطء المرور. سألني في أي وقت عليّ أن أكون في ولاية الشرطة. الثالثة، أجبته في حسرة. كانت الساعة تشير إلى الثانية وخمسين دقيقة. قال لي إننا لسنا بعيدين والمشوار لن يستغرق أكثر من عشر دقائق إذا كانت الطريق غير مزدحمة، ودعاني ألا أقلق. لا شك أنني كنت في حالة هستيرية مفزعة. و إلا ما الذي سيجعل سائقا لا أعرفه ولا يعرفني يتعاطف معي على هذا النحو؟ فهمت أنني سوف أضيع الموعد لا ريب. لم نعد الآن نسير البتة. حركة المرور توقفت تماما. شاهدنا سيارات كثيرة أمامنا تستدير وتعود أدراجها في الاتجاه المعاكس. "ما الذي يحصل؟" تساءل السائق الروماني، ثم أردف وهو يتذكر شيئا كان قد نسيه: "آه. إنهم الممرضون. لقد نزلوا اليوم إلى الشارع يحتجون بدعوة من نقابتهم، لذلك ارتبكت حركة السير!"

صرخت في أعماقي:" اللعنة على الممرضين وعلى نقابتهم وعلى وزارة الصحة والحكومة التي لم تكف عن تفريق الوعود ذات اليمين وذات الشمال!"

الطريق كانت مسدودة. استدار السائق وحاول طمأنتي بأن ثمة طريقا أخرى قد تجعلنا نصل في الموعد. لكن هيهات. لقد ضاع الموعد. ها نحن مازلنا نراوح مكاننا أمام الأسد الحجري الذي ينتصب بعجرفة في ساحة دونفير روشرو بينما الساعة الآن تشير إلى الثالثة!

13
الظفر بالخلود

"أغلى ما يمكن أن يحصل عليه طالب أجنبي هنا، هو هذه الورقة الساحرة. الملونة. الجميلة. الجذابة. الرائعة والخطيرة: بطاقة الإقامة!"

ج. لولاش

توقفت سيارة الأجرة في رأس شارع مزدحم بالسيارات. كنا قد استنفذنا وقتا طويلا في الدوران بلا طائل. من شارع مكتظ لشارع مغلق. ومن صف طويل لطابور بلا نهاية. ومن ورطة لمتاهة... السائق الروماني الذي حافظ على تفاؤله طوال الطريق، إقتنع في النهاية أن أنسب حل هو أن أنزل في أقرب نقطة ممكنة. وأواصل المشوار إلى ولاية البوليس مشيا على الأقدام! أشار بأصبعه إلى زنقة صغيرة على بعد خطوات. وقال إنه يتعين علي أن أنحدر عبرها طولا إلى أن أصل إلى الشارع الكبير. مضيفا أن اسمه شارع فولتير. هناك علي أن أدور إلى اليسار وأواصل السير حوالي مائتي متر. في انعطافة على اليمين، توجد زنقة ميوليس حيث ولاية الشرطة. شكرته بحرارة وأخرجت من حافظة نقودي ورقة من فئة عشرة أورو. قبل أن أحشر أصابعي، بصعوبة بـ̃غة.

في جيب سروالي. كي أخرج قطعا نقدية لأكمل المبلغ الذي يشير إليه العداد: إثنا عشر أورو ونصف... بيد أن السائق قال لي بلهجة مواسية إن عشرة أورو تكفيه. وتمنى لي حظا سعيدا. بدا متعاطفا إلى أبعد حد مع مأساتي الصغيرة. كان لطيفا للغاية. خمنت أنني قد ذكرته، على الأرجح، بأخ أو أخت له يعيش نفس وضعيتي الآن. أو ربما هو نفسه كان يوما ما طالبا وعاش نفس الحكايات العبثية مع مركز الشرطة. قبل أن يضعه المصير الأعمى أمام مقود سيارة ميرسيديس بيضاء ويصبح سائق طاكسي في باريس... تعاطف معي لأنه أجنبي مثلي. ويفهم جيدا معنى أن تجيئ من بلاد مهزومة لتعيش بين المنتصرين. لوكان فرنسيا لأنزلني باحتقار وتحاسب معي سنتا سنتا... شكرته ثانية، وهرولت نحو الجهة التي أشار إليها بأصبعه. كنت أجري باتجاه شارع فولتير حين أحسست فجأة وكأنني تخلصت من حمل ثقيل. الساعة كانت تشير إلى الثالثة وخمس وعشرين دقيقة. بمعنى أنني ضيعت الموعد منذ ما يناهز نصف ساعة. ومع ذلك لم أعد متوترا بالشكل الذي كنت عليه في سيارة الأجرة. ربما لأن مصيري الآن صار بين رجلي. لم يعد رهينا بعجلات ميرسيديس بيضاء مشؤومة!

ظللت أجري بلا توقف وأمسح بمنديل ورقي حبات العرق التي تكلل جبيني. اصطدمت بامرأة كانت تخرج غير منتبهة من مخبزة. كانت تمشي إلى الخلف وهي تتحدث بصوت مرتفع إلى بائعة الخبز. لحسن الحظ أنني تفاديتها في الوقت المناسب. لذلك كان اصطدامنا خفيفا. اعتذرت لها بلطف رغم أنها كانت المذنبة. اعتذرت هي أيضا. تم ذلك بسرعة فائقة. حيث إنني لم أتوقف تقريبا عن الجري. تخيلت لو أن

المشهد ذاته وقع في البلاد. لا شك أن لعنات كثيرة كانت سوف تتطاير في السماء. وربما تحول الكلام بسرعة إلى لكم ولطم وسجن ومحاكم...

في باب ولاية الشرطة كانت الساعة تشير إلى الرابعة إلا ربع. استعطفت الشرطي الأسمر الذي يحرس البوابة أن يتركني أدخل. حدق في ورقة الإستدعاء التي أعطيته وقال لي بنبرة جافة:

« Vous ne pouvez pas entrer monsieur. Votre rendez-vous était à 15h et pas à 16h ! »

شرحت له كيف تعطل المترو رقم6 دون سابق إنذار وكيف اكتظت الطرق بالسيارات وكيف أن الممرضين كانوا يملأون الشوارع مما عرقل حركة المرور. وقلت له إنني جئت إلى هنا مشيا على الأقدام... كنت ألهث. لكنه بدا لامباليا. حين تيقنت أنني سوف أعود أدراجي خائبا، أعاد إلي فجأة استدعائي وطلب مني الدخول...

في بهو البناية. أمام المدخل، وجدت شرطية بلباسها الأزرق تجلس إلى طاولة. لاحظت أن الشخص الذي أمامي سلمها استدعاءه وجواز سفره. تأملت الشرطية الأوراق ببرود ثم سلمته مطبوعا وأشارت بأصابعها إلى الأدراج. بعد ذلك نظرت إلي. بسرعة أخرجت من محفظتي ملفا ضخما وأعطيتها ورقة الإستدعاء بارتباك ملحوظ:

« Vous êtes trop en retard Monsieur ! »

قالت وهي تتفحص الإستدعاء. شغلت فورا أسطوانة المترو العاطل وحركة السير المضطربة والممرضين الذين نزلوا إلى الشارع وبالغت في

اللهاث والإستعطاف... بعد تردد صغير، أعطتني أوراقي ومطبوعا قالت إنه يتعين علي ملؤه. طلبت مني أن أسحب رقما من الآلة التي تنظم الإنتظار ثم أصعد الطابق الأول لأنتظر دوري. ملأت المطبوع بسرعة خاطفة، وأنا لا أكاد أصدق أنني اجتزت امتحان الموعد بنجاح. كنت أطير من الفرح...

في الطابق الأول. وجدت عشرات الطلاب ينتظرون. لم أعرف أحدا. كان كل واحد يبدو منشغلا بأوراقه ودوره ومصيره الغامض. على مكاتب موزعة بشكل دائري في محيط الصالة جلست موظفات بألوان وأعمار ومزاجات مختلفة. بينما تكدس الطلاب في الوسط ينتظرون. كل مرة كانت إحداهن تنادي على رقم فينهض طالب ما مذعورا. يبحث عن الشباك الذي أتى منه الصوت. دقائق طويلة مرت قبل أن أسمع رقمي:

« Le 266 au guichet5 s'il vous plait »

قفزت من مكاني وبحثت عن الشباك رقم 5. عكس ما يوحي به صوتها، لا تبدو المرأة التي نادت عليَ شريرة. أعطيتها المطبوع. طلبت مني جواز السفر. تأملته بتؤدة وشرعت تكتب على ورقة أمامها. ثم بدأنا لعبة ولاية الشرطة السخيفة: طلبت مني شهادة السكنى فناولتها شهادة السكنى. طلبت بطاقة الطالب فناولتها بطاقة الطالب. طلبت بيانات البنك الشهرية فناولتها بيانات البنك الشهرية. طلبت ورقة تثبت مواردي المالية للسنة القادمة فناولتها ورقة تثبت مواردي المالية للسنة القادمة. طلبت نتائج السنة الدراسية الماضية فناولتها نتائج السنة الدراسية الماضية. طلبت صورا بالأبيض والأسود فناولتها صورا بالأبيض والأسود... في النهاية جلست. كان قلبي يدق كما لو أنني أحضر محاكمة مصيرية في

محكمة بعيدة. طالبة صينية إلى جانبي قالت لي، بلا مناسبة، إنها تنتظر هنا منذ ساعة. سويا شتمنا ولاية الشرطة، قبل أن تسألني عما أدرس. أجبتها باقتضاب. تحدثنا قليلا عن معاناة الطلاب الأجانب مع العمل والدراسة وعن صلف موظفات وزارة الداخلية. فجأة قفزت من مكانها وهي تسمع إحداهن تنادي باسمها. ذهبت في اتجاه الصوت، وبقيت لوحدي انتظر. الانتظار هنا ثقيل ورهيب. تجولت بنظراتي في القاعة. معظم الطلاب صامتون وواجمون كما في جنازة. بحثت في محفظتي عن كتاب. وجدت أنني أحمل معي رواية "العناصر الأساسية" لميشال ويلبيك. فتحته وبدأت أقرأ بعض الفقرات. لم أكن في الحقية أقرأ. كنت فقط أقلب الصفحات بتوتر واضح وأنظر بين الفينة والأخرى في اتجاه الشباك الذي تركت فيه جواز سفري. بعد هنيهات سأسمع ردهم النهائي. إما أربح عاما جديدا من الإقامة الشرعية في فرنسا أو أدخل في دهاليز السرية! مرت أمامي الطالبة الصينية وهي تبتسم. لقد حصلت على بطاقة الإقامة. ودَعتني وتمنت لي حظا سعيدا. عاودت فتح "العناصر الأساسية". لقد قرأت هذا الكتاب مرتين. تثيرني فيه مقدمته على الخصوص. لذلك أحمله معي. استهلال صغير يتحدث عن أناس انتصروا نهائيا على الموت. بشر ظفروا بالخلود وهم يخاطبون الأجداد ويشكرونهم على ما ينعمون به بفضل ما تركوا لهم من تضحيات وأبحاث علمية. الخلود في الرواية يتحقق بفضل الاستنساخ وبواسطة أبحاث في علم الوراثة يطورها شخص ينتحر في النهاية. قبل أن يتمكن من الإستفادة من إنجازاته. يبدأ الخلود عند ويلبيك سنة 2010. رغم أن هذا العام يبدو قريبا جدا، فأنا لست معنيا بالعيش إلى الأبد. لا يهمني الخلود في كتاب ويلبيك ولا في غيره من الكتب. أريد أن أعيش حياتي كما هي، بكامل سخافتها، ثم أمضي. إذا

خيرت، لن أتنازل أبدا عن موتي. أغلقت "العناصر الأساسية". تنتظرني أشياء أهم كثيرا من التفكير في أصل الوجود وجدواه. أنا الآن لا أريد أكثر من بطاقة إقامة. بعدها أذهب إلى غرفتي وأنام. وليربحوا بالخلود... سمعت أخيرا إسمي فهرولت مذعورا نحو مصدر الصوت.

حوالي الخامسة مساء، كنت أغادر ولاية الشرطة نافخا صدري كطاووس. على جواز سفري ألصقت بطاقة إقامة جديدة. أغلى ما يمكن أن يحصل عليه طالب أجنبي على هذه البقعة من الأرض هو هذه الورقة الساحرة. الملونة. الجميلة. الجذابة. الرائعة والخطيرة. بعد كل الإرهاب الذي عشته، بعد الإسهال واللهاث والإستعطاف، وبعد المترو العاطل وزحمة السير ونظرات الشرطي الأسمر المحتقرة ... من حقي الآن أن أشهر سعادتي راية مزركشة وأنا أذرع الشوارع والمقاهي. من حقي أن أفرح لأنني أصبحت أسكن في فرنسا بطريقة شرعية تماما لمدة سنة كاملة. من حقي أن أمشي بخيلاء مثل قائد أحرز نصرا خطيرا على الأعداء... الإحساس الذي يغمرني الآن، أهم وأجمل كثيرا من خلود ويلبيك!

14
احتيالات صغيرة

"أنت الذي تحلم بالهجرة إلى فرنسا،
إحفظ جيدا هذه الكلمات: بطاقة إقامة،
وعد عمل، رخصة شغل، ولاية
الشرطة، نيكولا ساركوزي... ولاتطلب
مني مساعدة، لأن مصير شخص مثلك
لا يعنيني!"

ج. لولاش

لا أعرف كيف كان سيكون مصيري هنا لولا مساعدات العائلة! أصبحت مقتنعا، بعد تجربة متواضعة في التشرد، أن تحديد النسل فكرة غير صالحة بتاتا في المغرب. مادامت الدولة نفضت يديها من كل شيء ولم يعد يعنيها مصير العاطلين واليائسين والمعدمين ومن يقيمون في الحضيض، لماذا لا تترك الأسرة على الأقل تتكفل بهم؟ لماذا لا تترك الإخوة يتكفلون ببعضهم البعض، يقتسمون راتبا واحدا ومصيرا واحدا تحت سقف واحد في انتظار الفرج؟ يجدر بالدولة أن تكفّ عن حملات قطع نسل الفقراء. ألم يكفها أنها قطعت عليهم الأرزاق والماء والكهرباء؟ وإذا كنت تشكّ في أهمية العائلات كثيرة العدد، أتمنى لك من أعماق قلبي أن تسقط في ورطة... وأرسل لي في النهاية لائحة بمن قصدتهم فوقفوا إلى جانبك!

فائدة العائلات كثيرة العدد هو هذا بالضبط: إذا ما انسدت الآفاق في وجه فرد منها وجد أمامه أكثر من باب ليطرقها. والأبواب مهمّة جدا في عالم كلّه جدران. قد ينكرك أخوك الأكبر وقد يتخلى عنك الذي يليه وثلاثة إخوة آخرين. لكن لا بدّ أن يساعدك واحد منهم على الأقل. وحتى إذا ما خذلك الذكور كلّهم لا يمكن أن تتخلى عنك أخواتك البنات. أما الأصدقاء، دعني أضحك... إنهم مجرد مزحة ثقيلة الدم. لا يتذكرونك إلا عندما يرون بين يديك مجاديف مراكبهم التي تغرق. حين تغرق مركبك أنت، فهم لا يفعلون أكثر من التأسف والرثاء، أو هز الأكتاف في لامبالاة. هذا إذا كنت محظوظا ولم تكتشف في النهاية أن أحدا منهم هو من ثقب المركب!

تمر علي شهور طويلة في باريس دون عمل. أدخل بطاقتي الزرقاء في شبّاك كريدي ليوني فيلفظها بسرعة. أبدَل الشبّاك عدة مرات لعل قلب المصرف يرقّ ويسعفني ببعض الأوروات على سبيل الدين، لكنّه ينتهي دائما بأن يبتلع البطاقة ويتركني أشتم الفقر والحظ العاثر. أتعرف ماذا تعني شهور بلا عمل في باريس؟ شهور بلا دخل، شهور بلا نقود في الحساب أو في الجيب أوحتى تحت الوسادة؟ الغريب أنني رغم ذلك آكل وأشرب وأنام وأجلس في المقهى كل يوم تقريبا. أنتهي دائما بأن أتدبّر أمري. والفضل في ذلك يعود دون شك، بعد رضا الوالدين، إلى بعض الاحتيالات الصغيرة! لكنني ضجرت من التيهان بلا طائل وسئمت التسكع بلا نقود. بتّ أحفظ خطوط المترو محطّة محطّة وأعرف أسماء الشوارع والأزقة وأرقام الدوائر أفضل من سعاة البريد وسائقي الحافلات. منذ أسابيع وأنا أفتش عن شغل. أتربص بالإعلانات في الجرائد وعلى

جدران الجامعة والسوبرمارشيات وأتصل وأهتف وأرسل السيفيات والطلبات والترشيحات... دائما بلا جدوى!

ذات أربعاء قررت أن أذهب إلى السوربون بعد طول انقطاع. لم أعد أجيء إليها إلا نادرا لأنني ماعدت ملزما بمتابعة أيّ محاضرة. كل ما عليّ هو لقاء الأستاذة المشرفة من حين لآخر حتى أكمل الرسالة. غالبا ما يتم ذلك في مكتبها بعيدا عن الجامعة. بمجرّد ما وصلت إلى ساحة الكلّية فكرت أن أعود أدراجي. كرهت حياة الطالب المفلس طوال الوقت. أريد أن أدبّر على نفسي بعيدا عن المحاضرات والكتب والشهادات والدروس. ضغطت على نفسي وأقنعتني بأن أذهب، على الأقل، إلى غرفة الإعلاميات بالمكتبة لأفتح علبتي الإلكترونية وأرى هل توصلت بإيميلات جديدة. لم أذهب إلى صالة الإنترنيت بل قادتني خطواتي إلى سوكرتارية الشعبة حيث أدرس. حيّيت ميشال، السكريتيرة، ثم جلت ببصري في الإعلانات المعلقة على الجدار. سمعتها تسألني إذا ما كنت أفتّش عن شغل. هززت رأسي بالإيجاب. قالت: "يهمّك أن تشتغل في مطعم جامعة جوسيو؟" لا أعرف لماذا ظننتها تمزح. غير أنها أردفت بمنتهى الجدية أن مسؤولة المطعم صديقة لها. صدّقتها هذه المرة. ميشال سكريتيرة رائعة تتعاطف كثيرا مع الطلاّب الأجانب وتساعدهم متى استطاعت إلى ذلك سبيلا. أبديت حماسي للعرض، رغم خوف لم أعرف مصدره، وسألتها متى تستطيع أن تربطني بالمسؤولة. ردّت بلا تردّد: "حالا". أخذت سماعة الهاتف على الفور وسمعتها تقول: "بونجور داني سي ميشال ألا باراي...." ثم حدّدت لي موعدا معها. شكرتها بحرارة وأنا لا أكاد أصدّق أنني عثرت أخيرا على عمل سينقذني من التشرد!

صباح اليوم الموالي ركبت المترو رقم 7 قاصدا جوسيو. سألت اول طالبة في ساحة الجامعة الكبيرة عن المطعم. أشارت إلى اتجاه بعيد ورسمت بيديها مسارا فيه كثير من الإنعراجات والصعود والهبوط. تبعت الإتجاه غير متأكد من الطريق. طفقت أسأل شخصا جديدا كلما مشيت بضعة أمتار، إلى أن وصلت. صديقة ميشال إسمها داني. وقفت أمام الشباك الزجاجي لإدارة المطعم وبقيت أنتظر. أطلت سيدة في الأربعين تضع على عينيها نظارات طبية سميكة. قلت لها إنني أسأل عن السيدة داني. ردّت: "أنا هي داني". "تشرفنا" أجبت قبل أن أخبرها بأن صديقتها ميشال أرسلتني عندها بخصوص عرض الشغل. أجابت كما لو أنها تذكّرت شيئا: "آه، حسنا، متى تستطيع أن تبدأ؟". من الآن، قلت. يلزمني فقط "وعد العمل" حتى يتسنى لي أن أطلب "رخصة شغل". قالت بلهجة مرتابة إن ذلك ليس من اختصاصهم بل من اختصاص إدارة الجامعة وتحديدا قسم الموظفين. أضافت أنهم في حاجة إلى شخص يلتحق بالعمل في أقرب وقت. إدّعيت أنني سأتّم جميع الإجراءات في ثلاثة أيام على أكبر تقدير. كنت أكذب طبعا، لأنني أعرف جيدا ماذا تعني رخصة الشغل. الحصول عليها لا يقلّ مشقة عن الحصول على بطاقة الإقامة. أعرف كم يبلغ طول الطابور الذي يتكدس أمام قسم اليد العاملة الأجنبية في المديرية الإقليمية للشغل. أعرف جيدا هذه الإدارة الموجودة بالدائرة التاسعة عشرة حيث تسلم الرخص للطلاب الأجانب بعد طول بهدلة وانتظار. وجدتني مجبرا على تهوين الأمر أمامها ليكون لي حظ في الظفر بوثيقة وعد العمل. من دونها لا تستطيع أن تقدم طلبا بالحصول على رخصة شغل وبالتالي لا عمل ولاهم يحزنون. المهم أن تكون الوثيقة

في جيبي. بعدها أضعهم أمام الأمر الواقع وأجعلهم ينتظرون. لست مخادعا لكن شروط العيش في هذه البلاد تقتضي احتيالات من هذا النوع!

شرحت لي داني أن المطعم يتوفر على إدارة وثلاث قاعات أكل. كل قاعة تحتاج إلى شخص يشرف على الصندوق. يعمل بالمطعم ثلاثة شباب: إيمانييل وأوليفيي وآمال. لكنهم محتاجون إلى شخص إضافي لأن الشغل كثير ومتراكم في الإدارة وعددهن لا يتجاوز أربعة. إنهم بانتظار الشخص الجديد ليتكفل بأحد الصناديق الثلاثة ويترك آمال تلتحق بالإدارة... لاشك أنني سأضيّع هذا العمل بسبب رخصة الشغل اللعينة. فكرت وأنا أشتم من وضع هذه القوانين العنصرية التي لا تهدف إلى شيء آخر غير قتل المهاجرين جوعا! كنت أنصت إلى داني باهتمام دون أن أنبس ببنت شفة. طلبت مني فجأة أن أنتظر. فتحَت الباب وخرجت. أزالت من الزجاج الخارجي إعلان الشغل ثم عادت إلى مكتبها. وضعت فوقه خاتما قبل أن تسلمني إياه : "إذهب بسرعة إلى قسم الموظفين وتدبّر معهم إجراءاتك الإدارية. إنه موجود في الطابق السابع عشر من البرج المركزي". أمسكت بالورقة المختومة، وأحسست أنني قطعت شوطا هاما في معركتي ضد التشرد!

هرولت نحو البرج المركزي، أعلى بناية في جامعة جوسيو. أخذت المصعد رفقة خمسة أشخاص. مصعد واسع ونظيف مزود بمرآة كبيرة. مسحت شعري بيدي وأغلقت صدَفة مفتوحة على صدر قميصي. كان المصعد يتوقف في كل الطوابق تقريبا ويحمل أشخاصا جددا. لم ينزل أحد. الجميع يريد الصعود دائما أعلى، فكّرت. لماذا؟ هل يبحثون عن السعادة فوق؟! لا أعرف إذا ما كانت السعادة تختبئ في القمة. لكنني

متأكد أن الخوف من السقوط موجود هناك. لماذا يحب الناس الصعود نحو الخوف؟ وأين توجد السعادة البشرية؟ على السفح؟ في الحضيض؟!... لكم أبدو سخيفا وأنا ألبس نظارات فيلسوف خطير. لحسن الحظ أنني، بسبب الزحام، لم أعد أرى نفسي في المرآة. لا شك أن شوارب طويلة نبتت لي في تلك اللحظات وصار منظري مضحكا كالمنفلوطي. ما شأني أنا بالسعادة البشرية والقمة والسفح والضمير والكوخ والغني والفقير؟! أنا لا أريد شيئا آخر غير العمل وربح النقود وتوديع التشرد. لماذا تجرني إليها هذه الترهات؟! الساعة تجاوزت الحادية عشرة بدقائق. خفّ الزحام ابتداء من الطابق الحادي عاشر. في السابع عشر نزلت وسألت سيدة كانت تهم بالصعود عن مكتب الموظفين. أشارت بيدها وهي تطلب مني أن أدور على اليمين. قبل أن ينغلق عليها باب المصعد. استدرت يمينا كما أشارت. ثمّة بابان: الأول مغلق ولا يحمل أي علامة والثاني مفتوح. تمكنت أن أقرأ على ورقة بيضاء أعلاه : "Service du personnel". طرقت الباب طرقة خفيفة وتمتمت بصوت متردد: "Bonjour". ردَ عليّ بشكل متباعد موظف منزو في مكتب على اليسار وسيدة في مكتب مقابل. فيما بدت الموظفة الثالثة غارقة في تقليب ملفات أمامها. لم أعرف لمن أتوجه بالكلام. صعد الدم ساخنا إلى وجنتي. شعرت بالتردد وانتابني ذلك الإحساس المقيت بالدونية الذي يتربص بي في مثل هذه المواقف. كان الجميع ينظر إليَ. حتى السيدة التي لم ترد التحية حدجتني بنظرة متسائلة دون أن تتخلى عن تقليب ملفاتها. ملايين الصور مرت في رأسي قبل أن أسمع الموظف يتمتم "Oui ?". أنهيت ترددي متقدما نحوه. قلت له إنني جئت بشأن عرض الشغل المتعلق بمطعم الجامعة. ووضعت أمامه الورقة التي أعطتني داني."تفضل إجلس!" قال وهو يفحص الإعلان. سألني إذا ما

كنت أدرس بجوسيو. كلاّ، أجبت، بل في السوربون الجديدة. غير بعيد على كل حال، أردفت كما لو لأقنعه بأن الدراسة لن تلهيني عن العمل، والعكس أيضا. سألني عن جنسيتي. أجبت بأنني مغربي... مع الأسف، رددت في نفسي. وضع الورقة جانبا: "يتعين عليك ان تحضر رخصة شغل"، قال. أضاف أن الطلاب الأجانب لا يحق لهم العمل من دون ترخيص ولا أن يشتغلوا أكثر من عشرين ساعة في الأسبوع. قلت أعرف، وأنا هنا لأحصل على وعد عمل لكي يتسنى لي إحضار رخصة الشغل. طلب مني بطاقة الطالب وبطاقة الإقامة. سلمته الوثائق فنهض ثم اختفى خارج القاعة. رميت بصري من النافذة التي وراء المكتب. باريس رائعة من الطابق السابع عشر بأعلى برج في الدائرة الخامسة. وسط ضباب أكتوبر، تبدو المدينة مثل لوحة انطباعية رسمها موني. لمحت برج مونبارناس يقف متعجرفا وسط بنايات ضائعة في سديم الخريف. أحسست بفرح غامر. شعور داخلي جميل. كما لو كنت طفلا صغيرا وباريس لعبة بين يديّ. لعبة رائعة وباهظة الثمن، لم يشترها لي والدي في عاشوراء. عاد الموظف. المنظر الذي سحرني من النافذة حرّرني من التردد والخجل. قلت له إنكم محظوظون لأنكم تطلون كل صباح على هذا المشهد الرائع. ابتسم مؤيّدا. أعاد إليّ وثائقي وقال إنه سوف يهيئ وعد العمل ويعطيه لرئيس الجامعة كي يوقّعه. سألته متى سيكون جاهزا. في غضون يومين أو ثلاثة، أجاب. شرحت له كيف أنهم في إدارة المطعم يريدون شخصا جديدا في أقرب وقت. أعرف، قال. خمّنت أنه قرأ في عيني ما يفيد الإحتيال. لذلك أضاف بنبرة يختلط فيها الهزل بالجد: "إياك أن تبدأ العمل قبل أن تحصل على الرخصة. سوف تعرضنا جميعا لعقوبات مفتشي الشغل!" "كن مطمئنا!"، أجبت مبتسما. شكرته وألقيت

نظرة أخيرة على اللوحة التي خلفه قبل أن أودّع الجميع. وأنا أجتاز الباب سمعته يناديني. تملكني الخوف. سوف يقول لي بأنهم صرفوا النظر ... كان فقط يريد رقم هاتفي لكي يتصل بي حالما يوقع الرئيس وعد العمل!

هتف لي موظف الجامعة بعد يومين. ذهبت مسرعا إلى الطابق السابع عشر. وجدت وعد الشغل جاهزا. دقّقت في تفاصيله: صفة المنصب، عدد ساعات الشغل في اليوم، عدد الأيام في الأسبوع، التعويض عن كل ساعة، مدّة العقد... كل شيء بدا لي واضحا وعلى ما يرام. استرقت نظرة أخيرة من النافذة وانصرفت.

*

بين يدي الآن وعد حقيقي بالعمل. عليه خاتم وتوقيع رئيس الجامعة. لقد ربحت المعركة بفضل الحظ والإحتيالات الصغيرة ورضا الوالدين. لكن الحرب على التشرد ما تزال طويلة ومفتوحة على جميع الإحتمالات. غدا في الصباح الباكر أركب المترو رقم 5 في اتجاه محطة جوريس. تنتظرني مهمة حاسمة في 120 شارع لافيليت. هناك سأبدأ جولة جديدة: معركة رخصة الشغل... وما أدراك ما رخصة الشغل!

15

مطعم جوسيو

"القانون في فرنسا رجل أنيق يلبس ربطة عنق، قسمات وجهه الصارمة لا تمنعه من الابتسام. قد تحتال عليه من حين لآخر، لكنك تحترمه في النهاية. في المغرب، القانون رجل معتوه وأعور، يجري في الشوارع ملوحا بعصا غليظة. شخص قذر وحقير... ويقولون لك احترمه!"

ج. لولاش

رخصة الشغل!

لا بد من هذه الوثيقة الثمينة لكي تصبح إنسانا جديرا بالعمل في فرنسا. عضلاتك لوحدها لا تكفي مهما كانت مفتولة وبارزة. عقلك أيضا لوحده لا يصلح. لا بد أن تكون معك الرخصة. لا بد أن تسلّمك مصالح الشغل ووزارة الداخلية ورقة تافهة تسمح لك بالعمل. كل شيء هنا يخضع للفحص الدقيق وللمراقبة والتقييم والموافقة.

منذ أن تطأ قدمك قنصلية فرنسا طلبا للتأشيرة، تفهم بسهولة أنك شخص غير مرغوب فيه. "بّيرسونا نون غراتا". كأنّك طالع نحس يهدّد أمنهم واقتصادهم وتاريخهم وجغرافيتهم. الدولة الفرنسية تفعل كلّ ما بوسعها

من أجل طرد المهاجرين: يجعلون تجديد أوراق الإقامة أشبه بعبور الصراط المستقيم، والحصول على رخصة الشغل معركة حياة أو موت، ويعاملونك باحتقار وعنصرية... لكن المهاجرين لا يأبهون بكل ذلك ويرفعون التحدي. يفضلون لعبة القط والفأر مع القوانين العنصرية على الرجوع إلى بلدانهم. أن تلعب القط والفأر مع الأوربيين أفضل، في كل الأحوال، من أن تلعب الغمّيضة مع عصابة من بنات آوى في غابة كبيرة إسمها "البلاد"!

في 120 شارع لافيليت، وجدت حشدا كبيرا ينتظر. البناية من زجاج، تنتصب وحيدة في مكان شبه مقفر. بجانبها ترتفع سكة مترو استثنائية. تمر فوق الأرض. الخط رقم 5 الرابط بين ساحة إيطاليا وبوبينيي بّابلو بيّكاسو يرى النور بين محطتي جوريس وستالينغراد. يخرج القطار مثل ثعبان جائع قبل أن يعاود الدخول في جحره. كما لو كان وحشا خرافيا لا يتحمل ضوء الشمس. انتابني شعور غريب وأنا أندسّ وسط المنتظرين. كأنّ زلزالا رهيبا دمّر المكان. ونحن وسط الخراب شرذمة منكوبين تستجدي إغاثات إنسانية. كتب أعلى البناية الزجاجية: مكتب اليد العاملة الأجنبية. الواقفون كلهم طلبة أجانب من أوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية ومن آسيا والدول العربية... إذا استثنيت المنحدرين من بلدان الاتحاد الأوربي، وحدهم الجزائريون معفيون من رخص الشغل في فرنسا. بإمكان الطالب الجزائري أن يعمل أينما أراد دون أن تجرفه متاهات القوانين التمييزية التي تتربص بالأجانب. يبدو أن فرنسا تسهّل حياة الجزائريين فوق أرضها على سبيل الاعتذار عن قرن وثلاثين سنة من التنكيل والاستعباد ونهب الثروات. الجزائر نقطة سوداء

في ذاكرة الفرنسيين. حاولت الجمهورية الخامسة أن تنظّف الماضي من آثار الدم، لكنها لم تتمكن من إسكات صرخات مليون جثة. هاهم أحفاد الأمير عبد القادر، بعدما فقدوا كل البوصلات، يطالبونها اليوم بالفاتورة. الجزائريون تسكنهم رغبة جامحة في الإنتقام من فرنسا. لذلك، على الأرجح، تجدهم يسرقون ويحرقون السيارات ويكوّنون العصابات ويعيثون في الضواحي تخريبا!

لا أفهم لماذا يرسل الطالب الأجنبي إلى إدارة تحمل اسما مهينا كهذا: اليد العاملة!

كلما تأملت التسمية أشعر بالإحباط والغضب، وبالغثيان أحيانا. اليد العاملة، لا يمكن أن تذكّرك إلا بعمّال المناجم البؤساء الذين فتكت الجحور برئاتهم في "جيرمينال". أو بالمهاجرين الذين يحرثون حقول أوربا ليطعموا الأسياد البيض. تذكرني أيضا بالنهاية. بيوم الحشر. أجل يوم الحشر، حين تصير اليد شاهدة على ذنوب الفرد. تفضحه، تكذّبه، تقدّم لائحة بخطاياه، وتسلمه إلى آلة العذاب الجهنمية: اليد العاملة على خراب صاحبها! وحدها تلك التسمية كفيلة بأن تعكّر مزاجك وتشعرك كم أنت حقير وتافه في هذه البلاد. بلاد المنتصرين... اللعنة على من وضع تلك العبارة فوق البناية الزجاجية وأوقفنا أمامها ننتظر في صفوف طويلة!

لم يكن ثمة صفّ. الطلاب محتشدون كيفما اتفق. ينتظرون. الساعة تشير إلى الثانية وعشرين دقيقة. يبدو أن الإدارة لا تفتح قبل الثانية والنصف. قرأت على الواجهة الزجاجية إعلانا يحدّد الوثائق التي عليك أن تحملها للحصول على رخصة الشغل: الوعد بالعمل، بطاقة الطالب، بطاقة الإقامة وظرف يحمل طابعا بريديا. كنت أحمل معي جميع

هذه الأوراق. لحسن حظي أنني دخلت إلى موقع الإدارة على الإنترنيت قبل أن أجيء. بعد عشر دقائق سيفتحون الباب. لأنتظر. لقد تعودت على ذلك. منذ جئت إلى هنا وأنا لا أفعل شيئا غير الانتظار!

حصلت أخيرا على رخصة الشغل وأصبحت أعمل في مطعم جامعة جوسيو. يبدأ الشغل على الساعة الحادية عشرة صباحا. أنا أستيقظ في العاشرة. أحتسي قهوة أعدّها على مهل ثم أركب المترو رقم 7 من محطة بورط ديطالي في اتجاه جوسيو. المسافة قصيرة: بورط ديطالي، طولبياك، ساحة إيطاليا، ثم ليغوبلان، سونسيي دوبانتون، بلاص مونج... وها أنت في جوسيو. دقيقة أو دقيقتان، تكفي للذهاب من محطة لأخرى. بعد ربع ساعة يقذفني المترو وأذوب بين حشود الطلاب مهرولا نحو المطعم. إذا جئت مبكّرا أعرّج على الإدارة لآخذ البذلات البيضاء التي نرتديها نحن الثلاثة المكلّفون بالصناديق: إيمانييل وأوليفيي وأنا. آخذ أيضا مفاتيح الأجهزة التي نغلق بإحكام قبل أن نغادر. إذا أتيت متأخرا أذهب مباشرة إلى المطعم. هناك أجد جميع العاملين وقد تحلّقوا حول الموائد لتناول وجبة الغذاء قبل مباشرة العمل. إيمانييل هو الذي يأخذ البذل والمفاتيح في معظم الأحيان لأنه يأتي مبكّرا. إيمانييل طالب في جوسيو بجامعة بيار كيري، باريس السادسة. يحضّر دكتوراه في علوم الوراثة. تفرض عليه دراسته حضورا مستمرا في المختبر. لا أعرف ماذا يصنع إيمانييل في مختبره العجيب، لكن الدراسات التجريبية تبدو هنا في منتهى الجدية. عندما يحدّثني عن رسالته في علم الوراثة، أتذكر السنوات التي أهدرتها في المغرب بكلية العلوم. أنا أيضا، مثل إيمانييل، كنت أحب علوم الوراثة. وكنت متفوّقا في دروس الجينات والأحماض الأمينية وتهجين الكائنات. بدأت مشواري الجامعي بدراسة الأحجار والنباتات

والحيوانات في شعبة سمعتها سيئة بالجامعات المغربية. درست الADN وال ARN والكروموزومات والقواعد الأزوتية... ودرست البازلت والكرانيت والشيست والميكا والفيلدسبات والبلورات وموجات الزلزال L و P و S... ودرست الكيمياء العضوية، والذرية، والحرارية، والمعدنية... ودرست الكهرباء والفيزياء النووية والميكانيك و$E= m \times c^2$ ، ودرست الدوالّ والمشتقات والنهايات ومعادلات الدرجة الثالثة والنظمات والأعداد الطبيعية والنسبية والعقدية ومصفوفات المرور ونظرية ليزاكرواسمون فيني... وفي نهاية المطاف، رميت كل تلك السنوات والدروس في سطل قمامة وذهبت!

الطلاّب في فرنسا يذهبون إلى الشعب العلمية من أجل إنجاز بحوث نافعة ودفع عربة العلوم إلى الأمام. نحن كنا نجتاح كليات العلوم من أجل الحصول على عمل بعد الإجازة. نملأ المدرجات المتآكلة والمختبرات الحقيرة فقط لأن شعب الآداب لا تؤكل خبزا. الجميع كان يردد ذلك ويقول إن الطريق إلى المستقبل يمر من كلية العلوم. لم نكن معنيين البتة بدفع عربة العلم إلى الأمام لأننا كنا نعرف جيدا أن حمارا أجرب يجرّها إلى الوراء!

أصبحت مسؤولا عن صندوق المطعم. أشتغل في القاعة التي يتناول فيها الأساتذة والموظفون وطلاّب الدوكتوراه غذاءهم. عكس ما قد يوحي به الإسم، لاتوجد في الصندوق نقود. كلمة الصندوق يطلقونها على حاسوب صغير مزود بأزرار كتبت عليها أسماء مختلف الوحدات الغذائية: مقبّلات، صحن رئيسي، فاكهة، جبن، مشروب، حلوى، خمر... جميع رواد المطعم يتوفرون على بطائق مغناطيسية تسلّمها إيّاهم الإدارة مع

بداية السنة. ابتداء من الثانية عشرة زوالا يصطفون في طوابير يختلف طولها حسب الأيام. ما إن يفتح الباب حتى ينقضّون على ما لذّ وطاب ويملؤون أطباقهم. قبل أن يصلوا عندي للمحاسبة. العملية سلمية تماما لا تستدعي حمل النقود. كل شيء يقوم به الحاسوب الصغير والبطاقة المغناطيسية: أضغط على الأزرار التي توافق مختلف المواد الغذائية الموجودة في طابق الزبون، ثم أمرر البطاقة المغناطيسية في سكّة ضيقة أمام الجهاز، فتخرج من طابعة مرتبطة بها ورقة فيها جرد لما تحتويه الوجبة. كل الأجهزة في البلدان الديموقراطية شفافة ونزيهة. وجهاز مطعم جوسيو لا يشذ عن القاعدة. بكل أمانة وتفصيل يوضّح لك سعر كل وحدة غذائية والثمن الإجمالي للوجبة، كما يذكرك بما تبقى في الرصيد من أوروات. كل من يأكل هنا يتوفر على حساب لدى إدارة المطعم. على الزبناء أن يضعوا في حسابهم ما يكفي من نقود. العملية تتم في الإدارة. عليهم أن يحرصوا على القيام بذلك في الوقت المناسب، كلما استدعى الأمر ذلك. الجهاز العجيب يذكرهم بما تبقى في رصيدهم عقب كل وجبة. وحينما يصير الحساب على مشارف الإفلاس يكتب أسفل الورقة الصغيرة التي يتسلمها الزبون مع بطاقته: " عليكم إضافة نقود في حسابكم وشكرا". من لم يفعل يجد نفسه في موقف لا يحسد عليه... وقد أعذر من أنذر!

إدارة المطعم هادئة. تشتغل فيها نساء فقط. بيرناديت المسؤولة عن الإدارة، ومارتين المكلفة بالمحاسبة، ثم مارتين الأنتيلية البيضاء اللطيفة، وداني التي لا تكف عن الإبتسام والضحك بصوت مسموع لأتفه الأسباب. جميعا تتراوح أعمارهن ما بين الأربعين و الخمسين. بيرناديت هي أكبرهن بلا شك. أما أصغرهن فلا يمكنني أن أحسم في الأمر. أنا متردد ما بين مارتين المحاسبة الصارمة، ومارتين الأنتيلية... الأخيرة

أرتني ذات يوم صورة طفل قالت إنه حفيدها. مما يجعلني أرجّح أنها الأكبر. ربما كانت داني أيضا أصغر منهن جميعا لأنها تضحك باستمرار مثل مراهقة. يجدر بي في الحقيقة أن أعترف أنني لا أستطيع الجزم بشيء... أحمق من يدّعي معرفة أعمار النساء؟!

لا أحد يمنع الزبون المفلس من الاصطفاف في الطابور، ولا أحد يحرمه من انتقاء ما يشتهي من مأكولات ومشروبات، لكن حينما يصل عندي يبدأ الحساب. أمرر بطاقته في السكة وأكتشف على الشاشة أن رصيده لا يكفي لتسديد الوجبة. عندئذ أخفي ابتسامة شامتة وأطلق العنان لساديتي:

« Ah…vous n'avez pas assez d'argent sur votre compte monsieur ! »

أطلق في وجهه شامتا. يرتبك عادة ويبدأ في التأفف والتأسف وشتم النسيان والعجلة وكثرة المشاغل، قبل أن يسألني ما العمل؟ معظم الأحيان، أجبره على ترك طبقه جانبا ليذهب ذليلا إلى إدارة المطعم كي يملأ حسابه ويعود. لكم أستمتع بمنظر الأساتذة الصارمين والموظّفين المحترمين وطلاّب الدكتوراه النافخين أوداجهم، وهم يتفتفون أمامي كما يفعل تلميذ مذنب. يعتذرون ويستعطفون. وأنا سيد الموقف، أملك سلطة تجويعهم ولو لبضع لحظات. أتصرف دائما حسب المزاج. حين يكون رائقا، آخذ ورقة وأسجل ما انتقاه الزبون المذلول في انتظار أن يملأ حسابه في الغد. وقد أقبل أن يتكفل صديق بأداء وجبة مرافقه الذي أغفل ملأ رصيده. لكنني دائما أطبق القانون بصرامة كلما أردت أن أنتقم من أحد. نحن في بلاد القانون وكما ينكلون بي في أروقة ولايات الشرطة ومكاتب اليد العاملة الحقيرة، لن أمل من التنكيل بهم هنا في مطعم جوسيو... باسم القانون!

16
سان فالنتان

"أن تصبح فرنسيا معناه أن تصير حرا: تلبس ماشئت، تأكل ما شئت، تشرب ما شئت، تقول ماشئت، تكتب ما شئت وتشتم من شئت"

ج. لولاش

اليومْ عيد العشّاق. لاسان فالنتان. الناس في الشوارع يبتسمون وهم يحملون باقات ورد وهدايا. باريس مدينة الحبّ. تستطيع هنا أن تحبّ من شئت وما شئت كما شئت متى شئت وأينما شئت... دون أن تحفل بأحد. لقد حصل الفرنسيون على حرّيتهم الجنسية كاملة بعد ماي 68، بفضل الطلاّب الغاضبين وبفضل سيمون دوبوفوار وسيمون فاي وفرانسواز ساغان والجرّيئات اللائي وقّعن بيان المومسات الشهير... وغيرهنّ. في فرنسا اليوم، وصلت الحرية الجنسية إلى أقصاها. ماعليك سوى أن تحصي عدد نوادي التبادليين والسادو-مازو والجنس الثالث وليترافيستي، أو تقوم بجولة صغيرة في حي لوماري، حيث أنشأ المثليون جمهورية مستقلة داخل الجمهورية. وأنت تعبر أي شارع هنا، قد تصادف زنجيّا يمسك بيد شقراء، عجوزا تتأبط شابّا في عمر حفيدها، طويلة تلتصق بقزم، رجلا يعانق رجلا أو نصف رجل، امرأة تقبل امرأة... وقد

تجد، ببساطة، من يفضّل حبّ الحيوانات على حبّ بني البشر، دون أن يثير ذهول أحد. إذا أردت أن تشاهد عيّنات من هؤلاء، إفتح القناة الفرنسية الثالثة بعد زوال أيّ يوم وستجدهم عند إيفلين توما، يأتون للتلفزيون كي يقولوا للعالم: "سي مون شوا".

من تيراس مقهى لوديبار سان-ميشال أنظر للعابرين وأفكّر. وجوه الفرنسيين كتب مفتوحة عن آخرها، بعضها منشرح وبعضها حزين وبعضها مقطّب تقْطيبة أبديّة. لأنّهم متصالحون مع أجْسادهم ومع ضمائرهم وعقولهم، على الأرجح، تستطيع أن تعرف بسهولة حالتهم النفسية. عشّاق كثيرون يعبرون بباقات ورْد وابتسامات. بعضهم يستسلم لقبلات طويلة أمام الملأ، دون أن يعير اهتماما لأحد.

منذ جئت إلى باريس، لم يدقّ قلبي لأحد. أخطأتني كلّ سهام كيوبّيد. التقيت فتيات كثيرات من جنسيات مختلفة. بعضهن طرقن الباب بإلحاح لكنّني لم أفتح. لا أريد أن أسقط في شراك الحب مرة أخرى. لا أريد أن أعبر دروبا مبلّلة ومليئة بالضباب والخيبات. أن أعيد تصوير الفيلم الرديء ذاته ببدايته السعيدة ونهاياته المحزنة دائما. تكفيني الندوب العميقة التي أحمل داخلي بسبب الحب. الحبّ توأم الحماقة وأنا لست مستعدا لتضييع وقتي في حماقات جديدة. إنها آخر ما أحتاج إليه وسط الحياة المبعثرة التي أعيش اليوم. لقد كبرت. شارفت على الثلاثين وصار شخص آخر يتحدث داخلي. كلّ الفتيات اللاتي جعلن قلبي يرنّ رنينا خفيفا أبعدتهن عني. أفضّل مرافقة فتيات شبقيّات لليال عابرة. من تهزّ شباك قلبي أتركها وأفرّ بعيدا. تعلّمت ألا أضحك مع الحبّ. كلّما تعالت قهقهاتي وانتابني إحساس جميل وأنا أمازح إحداهن، يصرخ فيّ ابن حزم: "إعلم يرحمك الله أن الحب أوّله هزل وآخره جدّ"...

لكنني أعتقد اليوم أنني أحب كارول. أحبّها تقريبا. فتاة جميلة وطيّبة تعشقني بجنون، لماذا لاأحبّها؟ مادمت لن أرتكب أي حماقة. صحيح أن حبّنا يبدو فاترا أحيانا، تنقصه بعض البهارات، لكنه ينضج ويتفتّح مع الأيام. ماذا سأهدي إليها اليوم بمناسبة عيد الحبّ؟ لقد سبقتني كالعادة وحملت لي بالأمس قميصا من شوفينيون وآخر رواية ليان مواكس. لن أتعب نفسي في التفكير، سأشتري لها باقة ورد عند أحد الهنود. لا لا، سيتعبني الهندي باحتيالاته. ثم إنّ الورود لا تعني لي شيئا. أنا مجرد مغربيّ متخلف لا حسّ لي ولا ذوق والورود عندي مضيعة للنقود، ليس إلاّ. لمَ لا أدعوها إلى عشاء في مكان محترم؟ فكرة جيّدة، سأدعوها للعشاء في مطعم مغربي...

تذكّرت أن صديقي مصطفى حدّثني مؤخرا عن مطعم مغربي في الدائرة الحادية عشرة قال إنه ممتاز. يوجد غير بعيد عن متجر "فران بري" حيث يشغل حارسا. قال إن مسيّر المطعم من وجدة، وهو صديقه. اتصلت بمصطفى وطلبت منه عنوان المطعم. هتفت لكارول، بدت سعيدة جدّا بالدعوة. تواعدنا أن نلتقي قرب محطة ريبيبليك.

لم أفهم ماالذي دعا مصطفى إلى الكذب. قال لصاحب المطعم وهو يشدّ على يديه "هذا أخي وهذه زوجته كن لطيفا معهما"، ثم تمنى لنا شهية طيبة قبل أن ينصرف. كان بإمكانه أن يقول "هذا مثل أخي" و"هذه صديقته"، لكنه أصرّ أن أكون أخاه وأن يزوجني! مصطفى صديق رائع رغم كل شيء. سقط منذ سنتين في مستنقع الإقامة غير الشرعية، وابتلعته دوّامة بلا نهاية. صار يشرب كل يوم ويكذب باستمرار لكي ينقذ كبرياءه. إذا كنت بلا أوراق، تصير عرضة للإستغلال في أبشع تقليعاته. ثمّة دائما

مصّاصو الدماء الذين يتربصون بك ويقترحون عليك أعمالا شاقة بأثمنة تافهة. وثمة من حصلوا على أوراق الإقامة بعد زواج مدبّر، هؤلاء هوايتهم الأثيرة هي الاستهزاء من ورطة المهاجرين السرّيين الذين فضلوا التشرد على اقتسام السرير مع عجائز وذميمات. مصطفى متمسك بمكانه. يعرف أنه يعبر أقسى طريق في حياته، لكنه متسلح بكبريائه وعناده. عندما جاء إلى هنا قبل بضع سنوات، كان ككل الشباب المغربي الذي يجيء إلى الدراسة في فرنسا، مفعما بالأمل يرى مستقبله بالألوان. لكنه بعد سنوات من الصعود والهبوط بين مكاتب ولايات الشرطة والتنقل من عمل حقير لآخر أكثر حقارة، تعب وقرّر أن يترك الدراسة ويدخل في السرية. هذا ما يحدث للكثيرين. يجيئون من أجل الدراسة فتتعبهم الإجراءات والتدابير المتعلقة بتجديد الأوراق فيتحولون من طلبة إلى مهاجرين غير شرعيين. يصيرون مثل أولئك الذين جاؤوا إلى أوربا على متن قوارب مطاطية. مصطفى قضى عاما مليئا بالمغامرة واكتشاف الحياة في مدينة ليل. لكن آفاق الدراسة والعمل والحياة ضيقة في المدن البعيدة عن العاصمة، لذلك جمع رحاله وقصد باريس. هنا فرص العمل كثيرة رغم أنها ليست سهلة. دارت الأيام فوجد نفسه في الشارع بلا عمل وبلا دراسة وبلا أوراق، انتهى في آخر المطاف بأن خاطر بحياته وزوّر أوراق الإقامة، ثم عثر على عمل في "فران بري". يعيش الآن مهدّدا بالسجن كل لحظة، في انتظار فرج ما. أتمنى أن يأتي قريبا، لأنّ مصطفى صديقي الوحيد في هذه المدينة. وحده يستحق أن يحمل ذلك النعت. لقد شطبت على كل من عرفتهم واعتبرتهم أصدقاء في وقت ما. وبقي مصطفى لأنه، في عز تشرّده، وجدته دائما إلى جانبي كلما احتجت إليه.

بعد أربع سنوات في باريس، بتّ أنظر للعالم على نحو مختلف. تعلَمت أن أذهب في نزهات طويلة داخلي. أن أتعرف عليّ عن كثب. أن أكتشف ما أحب وما أكره وأن أفرق بين ما أريد وما يريده لي الآخرون. مايريدون بي على الأرجح. تعلمت أن لي جسدا وتاريخا وأحلاما وعمرا وأنني وحدي أملك حق التصرف فيها. ولست مطالبا بتقديم كشف حساب لأحد. لست ملزما بإعطاء شروحات أو تفسيرات ل "الآخرين". الآخرون في المغرب حقراء. يحشرون أنوفهم في حياتك ويريدون أن يقرّروا في كل شيء بدلا عنك. تعتقد أنهم أصدقاؤك وأقرباؤك وأصحابك، فتتعامل معهم بلطف وتفهّم، على حساب أشياء ثمينة فيْ أعماقك. لقد اكتشفت أخيرا، أن من اعتقدت طويلا أنهم أصدقائي كانوا مجرد معارف وأشخاص فرضتهم عليّ الظروف. الغربة تعلّمك أشياء كثيرة، تعلّمك أن ترى وجهك في المرآة، أن تكلّمه بصوت مسموع، أن تتأمل ندوب روحك بما يلزم من ألم وأنين. هي ليست غربة في الحقيقة، بل مجرد نظرة متفحصة من مسافة بعيدة. حين تنأى عن العالم الوسخ من حيث أتيت، ترى تفاهته على نحو أوضح. من باريس، من أعلى قمم اليأس، تبدو لي البلاد قذرة وسخيفة بشكل لايصدق: الشوارع تشبه مزابل عمومية مزدحمة بأناس وجوههم ملأى بالغبار. الإدارات فاسدة بمدراء ذوي بطون مندلقة هوايتهم التنكيل بموظفين يلبسون ربطات عنق باهتة، يشتمون السلّم والرئيس والمواصلات وينتظرون آخر الشهر. الشباب يدهنون شعرهم بمراهم رخيصة ويحلمون بالهجرة للخارج، ويخرجون لمعاكسة فتيات بثياب مسلية. كل شيء يبدو في غير محلّه بهذه البلاد. أولئك الذين يجوبون الشوارع في سيارات اشتريت بأموال مشبوهة ويطلقون الأغاني الغربية ويحسبون أنهم خرقوا السماء، المثقفون الذين يتحدثون في بار حقير عن

العراق وفلسطين وعن مقالات سخيفة نشرت في صحف أسخف، والمكبوتون الذين يخرجون من صلاة العصر ويلاحقون عجائز العابرات، السياسيون الذين يكذبون أكثر من أربع وعشرين ساعة في اليوم، التافهون من كل حدب وصوب... تضحكني هذه البلاد. تضحكني الحداثة والمشروع الديموقراطي الذي يجره حمار مذبور. أهي بلاد حقا؟ أشك في ذلك: عصابة نصّابين اجتمعت، سطت على أراض وكذبت على ملايين من السذّج، وسمّت احتيالها بلادا ودولة... هذا كل ما هنالك!

كلما أوغلت في ممرّات الحياة، يبدو لي المغرب بلدا مضحكا وأتساءل لماذا كان عليّ أن أولد هناك. لو كان الإنسان يملك حرية اختيار البلد الذي يولد فيه، لكان المغرب مأوى للقردة فحسب. كل جنوب الكرة الأرضية ستسكنه الحيوانات فقط. سيختار المغاربة أستراليا وأمريكا والدنمارك والسويد وكندا. وأنا، بلا شك، سأختار باريس. لسوء حظنا أننا نولد دون أن يستشيرنا أحد. لأجل ذلك أحمل في نفسي غضبا قديما. يسميه العارفون، "الغضب الوجودي". وأتساءل الآن، كيف صار سارتر وجوديا وسط كلّ الجمال الباريسي؟ كيف كان سيكون لو ولد مغربيا؟

17
فيلم هندي

"كل امرأة ساذجة تحتاج إلى زوج
محتال وكل رجل طيب بحاجة إلى
امرأة شريرة "

ج. لولاش

عكس ما توقّعت، لم تبدُ كارول محرجة البتة. بمجرّد ما جلسنا أمسكت بكفّي وشرعت تتحدث مثل طفلة عن الطوْق الذي صنعت لأمها من أقْحوان حديقتها الصغيرة وعن الخنزير الهندي الذي جلبت للمنزل بعد أن مات الخنزير الهندي العجوز وأهالت عليه التراب في ركن من الحديقة. تتحدّث وتضحك في سعادة واضحة. بيرناديت أيضا بدت سعيدة لرؤية ابنتها بعد شهور من الغياب. فيما بدا والدها محايدا. أنا كنت متعبا. لقد قطعنا مئات الكيلومترات قبل أن نصل إلى هذه المدينة المرمية قرب الحدود مع إيطاليا. قبل ذلك، كان علينا أن نمرّ من مارسيليا. لأول مرّة أصل إلى عاصمة الجنوب منذ جئت إلى فرنسا. مارسيليا بعيدة جدّا عن باريس ومليئة بالعرب. أوّل ما يدهشك، بعد أن تتأكّد حقّا أنك لست في مدينة عربية، هو لكْنة سكّانها. "جيستومان"/ فرق كبير جدّا بين لكْنة الشمال ولكنة الجنوب. نادرا ما تتاح لك الفرصة لتستمتع بهذه اللكنة المسلية في باريس. لأن المارسيليين الذين يعيشون هناك يتكيفون مع جوّ

العاصمة. سرعان ما يدرّبون ألسنتهم على إيقاع كلام الباريسيين، كيلا يسخر منهم أحد. تماما كما يحدث عندنا مع المرّاكشيين حين يأتون إلى الرباط. لا أعرف لماذا لا يسخر الباريسيون من لكنة الأجانب غير الفرونكوفونين، حين يتحدّثون بالفرنسية. لا يفْعلون ذلك أمام الملأ، على الأقل. بينما يتخصّصون في السخرية من الكيبيكيين والسويسريين وأهل الجنوب. ربّما لأن الأجانب تلاميذهم النجباء. كلّهم مقتنعون أنّ الفرنسية لا يمكن أن تنطق إلاّ على النحو الذي يفعله الباريزيون، أو لأنهم يعتبرون أن بذْل جود للتحدّث بلغة ثانية أمر يستحق الاحترام، خصوصا أنّ معظمهم لا يتقن سوى لغة أجداده الغاليين. قضينا قرابة خمس ساعات في TGV، رغم أنه كان ينهب الطريق. انتظرنا بضع ساعات في محطة القطار، تحت شمس يوليوز، قبل أن نركب قطارا آخر في اتجاه تولون. هناك وجدنا بيرناديت تنتظرنا بالسيارة، وبعد نصف ساعة كنا هنا في سين-سير-مير حيث البحر يعانق الغابة.

سكون جميل يخيّم على منزل والديْ كارول. بيرناديت تنظر إليّ بعيون لامعة وتبتسم. شعرها أشقر ونظرتها وديعة كأي أمّ، فيما الوالد مستْغرق في إصلاح مائدة خشبية. يدقّ مسمارا تلو آخر دون أن يتخلى عن تقطيب جبينه. لا شك أنه عنصري يصوّت على حزب "الجبهة الوطنية"، وهو الآن، بين مسمار وآخر، يلعن هذا العربي القذر الذي يريد أن يخطف منه ابنته... فكّرت، كما العادة، قبل أن أهزّ رأسي عدّة مرات لكي أطْرد الوساوس السوداء.

بيرناديت حكت بفرحة عن مشاركتها الأخيرة في الكورال بقاعة البلديّة. قالت إنّ الحفلة كانت رائعة. رائعة. كدت أطلق ضحكة عندما تذكّرت أن كارول أخبرتني بأن صوت أمها حين تغني لا يختلف كثيرا عن النعيب

الذي يأتي من الغابة المجاورة، لكنّها عنيدة وتصر على المشاركة في كورال البلدة بأيّ ثمن. تذكّرت كورالات حضرتها في مناسبات متفرّقة ببعض الكاتدرائيات وابتسمت. الكورالات تصلح لهذا بالضبط: إيهام الفاشلين أن بإمكانهم الغناء أمام جمهور، نكاية بكلّ أعراف الموسيقى!

ذهبت كارول وبيرناديت إلى المطبخ وبقيت رأسا لرأس مع الأب الذي لم يكفّ عن العبوس ودق المسامير. استفزني الحرج. جلت ببصري في الغرفة. رأيت على طاولة التلفزيون بعض المجلات. انقضضت على واحدة لكي أدفن فيها حرجي. عدد قديم من مجلة Voici. طفقت أتصفّحه موهما نفسي أنني أقرأ. دقات المطرقة صارت الآن سريعة وعنيفة. تأملت صور سيلين ديون التي تملأ صفحات المجلّة. التعليقات تقول إن المغنية تعيش مأساة عائلية: زوجها مريض! أنظر إلى صورة الزوج إلى جانبها وأبتسم. بصلعته اللامعة ولحيته المقصوصة بعناية، يبدو مثل إمام مسجد في أحد الأحياء الراقية، لا يصلّي فيه إلاّ المنافقون. لاشكّ أنه رجل محتال، فكّرت، لأنّ سيلين ديون تبدو ساذجة بلا حدّ: كل امرأة ساذجة تحتاج إلى زوج محتال. وكل رجل طيب بحاجة إلى امرأة شريرة. هذه هي العلاقات التي تنجح في عالم اليوم. الروابط بين الرجل والمرأة تشبه بعض الروابط التي يدرسها التلاميذ في حصص الفيزياء: الشرير يجرّ إليه الطيّب والطيّب يجر إليه الشرير. والشرّير ينفر من الشرّير والطيب ينفر من الطيب... إنها كهرباء الحياة!

ضحكة سيلين ديون المسموعة وأحاديثها في التلفزيون تقول إنها امرأة ساذجة. وزوجها الأصلع ذو اللحية الأنيقة، إمام المسجد الراقي، مجرّد محتال. أنا متأكد أنّه لا مريض ولا هم يحزنون، لكنه يروّج ذلك في

الصحافة لكي يثير تعاطف الجمهور مع زوجته ويحقق ألبومها الجديد مبيعات أكثر. الأصلع المحتال زوجها ومدير أعمالها. و Voici مجلة سخيفة تصدرها عصابة نصّابين. ينشرون صور المشاهير معزّزة بالإشاعات والأكاذيب، لكي يشتريها أشخاص سذّج مثل بيرناديت. يعرفون جيدا من أين تؤكل الأكتاف. كارول طيّبة للغاية. عليّ إذن أن أكون خبيثا بما يكفي وإلاّ فإن علاقتنا منذورة للفشل!

رفعت رأسي واسترقت نظرة إلى والدها الذي يدقّ المسامير مقطبا جبينه: لاشك أنه رجل شرير هو أيضا، وإلا كيف استطاع أن يحافظ على بيرناديت الطيبة أكثر من ثلاثين سنة؟!

دخلت كارول فجأة وسألتني إذا ما كنت أحسّ بالملل. أجبتها طبعا بالنفي. ابتسمت مندهشة عندما رأتني أقلب صفحات Voici وتساءلت بذهول مصطنع: « تقرأ Voici»! هززت أكتافي وابتسمت دون أن أعلّق. أخذت كارول شيئا من الغرفة وانصرفت... الحقيقة أنني كنت مصابا بملل شديد. لذلك، على الأرجح، حاولت أن أشغل بالي ببعض الأسئلة الغبية: لماذا نخجل من قراءة المجلاّت السخيفة؟ لماذا نصاب بالحرج عندما يضبطنا الآخرون متلبّسين بأغنية أو مسرحية أو برنامج تلفزيوني تافه؟ لا أدري، لكنني شخصيا أحب أن أغوص عميقا في التفاهة من حين لآخر. أن أبدو سخيفا للعالم ولنفسي. لاشيء أكثر سخافة من الحياة. لكي أكون منسجما مع تفاهتها أحبّ أن أقوم بأشياء في منتهى الغباء. أشعر بسعادة غامرة عندما يراني الآخرون على هذا النحو. لكن من حين لآخر فقط، ليس دائما. ربما كنت مصابا بالشيزوفرينيا. لذلك أحتاج قدرا معيّنا من الحماقات كل يوم.

قبل أن أغادر البلاد، شاركت في فيديو كليب تافه لمغنية مغربية مشهورة. كأيّ ممثل من الدرجة العاشرة. لبست عباءة خضراء ورحت أتجول بين دروب الأوداية رفقة شخصين سخيفين أمام عدسة مخرج

خليجي. مازاد الموقف إثارة أن الرجل كان يحسب نفسه فورد كوبولا ونحن نتمشى أمامه كأبطال من هوليود. كان ثمة فتاة بتكشيطة مزركشة وماكياج رخيص تتبادل مع أحدنا نظرات الإعجاب، قبل أن تدخل أحد بيوتات الأوداية العتيقة. كنت أتجول في أزقة السخافة وأتلذذ. كما لو أنني أنتقم من كل ربطات عنق العالم. من جدّيته وصرامته وحقارته. بعد شهور بثّت الأغنية في التلفزيون. المغنية تتلوّى وترطن بكلمات خليجية غير مفهومة ونحن سخيفين على نحو لا يصدّق. عندما شاهدتها لأول مرة تمنيت لو أن الأرض تنشق كي أختبئ. تمنيت لو أن عقارب الساعة تدور في الاتجاه المعاكس ما يكفي من أيام لأمزق العباءة الخضراء وأبصق على المخرج الخليجي وأشتم النذل الذي اقترح عليّ الفكرة. لكن بمجرّد ما عاودني الإحساس بمتعة التفاهة، نسيت الندم. ما أروع أن تكون سخيفا: أن تخدش حياء العالم وتكسّر خطوطه الحمراء والخضراء والسوداء والبيضاء. ما أجمل أن تسحبه من ربطة عنقه وترميه في سطل قمامة. الحياة أكثر تعقيدا مما نتصور وأنا أريد أن أعيشها على نحو مختلف. لا أريد أن أفعل ما ينتظره مني الآخرون. أحب أن أخذلهم باستمرار. أن يحتقرونني. أن أصدمهم. أن أشعرهم باليأس. بالحرج. بالاشمئزاز. بالخجل. بمشاعر غير جميلة. أن أجلسهم جميعا على قارورة وأضحك... رأيت يدا تحمل قارورة بوردو أحمر قبل أن أسمع صوت كارول: "الغذاء جاهز، سوف نأكل"... ابتسمت وأنا أكتشف كيف استدرجني الملل إلى فيلم كلّه أغان وانتقام: فيلم هندي طويل.



18
ملوك الكعك

"إذا ما فكّرت يوما في رحلة إكزوتيكية
لرؤية الشمس والأوساخ وقرود تنط
خارج الأقفاص، إذا ما اشتهيت القيام
بسفر في آلة الزمن... حينها فقط
سأعود لزيارة المغرب"

ج. لولاش

تمطر بلا توقف هذا الصباح!

في نهار قذر مثل هذا، أفضّل أن أتكمش في الفراش ولا أفعل شيئا. إذا غادرت الفراش، أحب أن أشحّر شايا منعنعا، وأحتسيه بصوت مسموع. أزمّ شفتي فوق الكأس وأعبّ بقوّة قليلا من الشاي، وكثيرا من الهواء، ممّا يحدث شخيرا يسمع من بعيد. أجمل ما في الشاي سامفونية الأصوات التي تصاحبه: خريره حين ينساب في الكأس مثل جدول يتدحرج من أعلى جبل، ورقرقة الرشفات التي تسمع على بعد أمتار في ظهيرة رائقة، وطنين الكؤوس وهي ترتطم بالصينية الفضية... وأصوات أخرى رائعة تمنح لهذا المشروب سحره الغامض. لكن الشاي هنا في فرنسا مشروب معوّق: أخرس وممهوق... بلا لون وبلا صوت وبلا طعم وبلا رائحة. وهو أمر طبيعي، مادامت قبضة النعناع تتكون من ثلاثة

أعواد ذابلة، رغم أنها تصيبك بالدوار كأي زجاجة كحول رديء، ليس بسبب الرائحة، بل جراء ثمنها: أورو ونصف (أكثر من خمسة عشر درهما)! لم أتمالك نفسي أول مرة وانفجرت ضاحكا حينما أخبرني بقال الحي بثمن ثلاثة أعواد بنية... ضحك بدوره دون أن يعرف السبب.

في مقهى معهد العالم العربي، تستطيع أن تشرب شايا ممهوقا بثلاثة أورو. بعد بضعة شهور انتهيت بأن تعوّدت على هذا الشاي العجيب، ما ظل يزعجني هي عبارات الدهشة التي تخرج من أفواه الرواد: "أوه... يا له من شاي منعنع!" غير بعيد، في مقهى مسجد باريس، يقدّمون شايا أفضل. مذاقه أفضل من شاي معهد العالم العربي وثمنه أقلّ ولونه أشدّ صفرة، مثل بول مرضى السكري. لكنني لا أعرف لماذا أشعر بضيق كلما احتسيت كأس شاي في المسجد. شعور يشبه ما كنت أحسّه وأنا طفل صغير، أقضم التمر والخبز في مقبرة الحي. عقب كلّ جنازة تشيّع في تلك المقبرة الصغيرة، كنّا نذهب لنحصل على نصيبنا من الصدقة التي يوزعها أهل الفقيد. نظفر بكسرة خبز وحفنة تمر ونجري فرحين بغنائمنا الصغيرة. كان لحبّات التمر طعم غريب في فمي، يبدأ حلوا و ينتهي بمذاق التراب. فيما بعد فهمت أنّه طعم الصدقة، فاتر ومرّ مهما كانت حلاوة التمر. كما لو كنت تأكل حبّات حزن، أو تشرب كأس دموع. أعتقد أنّ شيئا له علاقة بهذه الذكريات، هو ما يمنح لشاي المسجد طعما غريبا في فمي. لا فرق بين المقبرة والمسجد في آخر الأمر. كل ما تأكله أو تشربه في هذه الأمكنة لا يمكن أن يكون إلاّ صدقة، والصدقة لها دائما مذاق مرّ، رغم أنك تؤدي مقابلا باهظا نظير "صدقة" مسجد باريس!

السماء ظلّت تبكي بلا توقّف، وأنا بقيت معتصما بالسرير. جاءت كارول في نهاية الزوال واقترحت أن نذهب لزيارة صديقتها إيزابيل. إيزابيل فرنسية شقراء من لابروتاني، تتكلم العربية بطلاقة، تحدثني دائما عنها.

مازالت تمطر بلا توقف، ونحن نجري كي لا نتبلل! أخذنا المصعد في اتّجاه الطّابق السّادس. فتحت إيزابيل الباب وقدّمت لنا رومان. قالت إنه صديق الطفولة. مهندس في الإعلاميات، يشتغل في رين، عاصمة لابروتاني، ويوجد في باريس لبضعة أيام. كان يفرك عينيه كأنه استيقظ من النوم. الحقيقة أنه كان ممددا على الكنبة وعندما دخلنا أجبر المسكين على النهوض لكي يترك لنا مكانا نجلس فيه. الغرفة ضيقة جدا، لكنها أنيقة. لا شك أن رومان يلعن سنسفيل جدودنا في نفسه. لا شك أنه يلعن تحديدا هذا العربي القذر الذي سيفسد عليه الليلة. لست أدري لماذا داهمتني هذه الأفكار الوقحة. لا أستطيع أن أوقفها. تزحف عليّ مثل جيش عدوّ لا أراه. كلّما جمعني موقف حرج مع فرنسي، أتصور أنه عنصري. مرارا أحاول أن أنظّف رأسي من هذه الأحكام الجاهزة، دون جدوى. لحسن الحظ أنني شخص لا يتسرع، وإلا لكانت العواقب وخيمة كل مرة. ذات يوم كنت أصعد الأدراج في محطة مترو عندما احتكت يدي عفويا بيد فرنسية عجوز جرّاء الزحام. رأيتها تقفز مذعورة وتبتعد مهرولة وهي تنظر إليّ كما لو كنت مجرما خطيرا فرّ من السجن. أتذكر أيضا يوم كنت أعدّ بحثا جامعيا عن "الخشبات الوطنية" فذهبت لمقابلة مسؤولة في وزارة الثقافة الفرنسية من أجل الحصول على بعض المعلومات. اصطحبت صديقة هنغارية تشتغل على نفس الموضوع. طوال اللقاء، ظلت المسؤولة تشرح كل شيء لزميلتي الشقراء بابتسامات عريضة، وكلما طرح عليها العربي القذر الذي كنته سؤالا، تقطب جبينها

وتحدجني بنظرة احتقار قبل أن ترد باقتضاب شديد، دون سبب. عدة مرات كانت تصنع كما لو أنها لم تسمع سؤالي. هممت بأن أمطرها بوابل من الشتائم السوقية التي تعلّمتها منذ جئت إلى هنا، بيد أنني تمالكت غضبي... ليس جميع الفرنسيين عنصريين، لكن عندما يصدمك أحدهم تصير متوجسا من كل من يشبهه. من عضتّه أفعى يخاف من الحبل، يقول المغاربة. أفضّل ألا أصدم في الناس، لذلك أتوقع منهم الأسوء دائما!

لم تظهر على إيزابيل ورومان أمارات حرج كما يحدث عادة في مثل هذه المواقف. إيزابيل أشعلت سيجارة ومدّت له أخرى وقالت دون أن تنتظر جوابا، أنتما لا تدخنان. تساءلت كيف عرفت أنني لا أدخن؟ لا شك أن كارول حكت لها طويلا عني. أعطتها كارول زجاجة الشامبانيا التي حملنا معنا. هتفت إيزابيل "واو..." وابتسم رومان وقد دبّت فيه فجأة حيوية غريبة. رؤية الشامبانيا كانت كافية لكي توقظه. صاح: "دعوني أفتحها"... أدار السدادة دورة صغيرة، فتطايرت فقاعات السائل السحري في الهواء محدثة فرقعة جميلة تصايح لها الجميع... الشامبانيا مثل الشاي في نهاية المطاف، أهمّ ما فيها صوتها. إذا لم تحدث سدّادتها فرقعة هائلة وإذا لم يتطاير السائل عاليا مثل نافورة، وإذا لم يقرع الشاربون كؤوسهم، يصيرهذا المشروب الأرستقراطي بلا معنى. الشامبانيا شاي الأغنياء. أنا لا أشربها لأنني فقير.

لم أفهم في البداية لماذا وضعت إيزابيل على المائدة صحنا كبيرا تملأه حبات جزر وقطع قنّبيط. اعتقدت أنها تريد تهييء الخضر لإعداد العشاء. لكنها بدل أن تشرع في تقطيع حبات الجزر وقطع القنّبيط النيئة، وضعت على المائدة قدحين بهما سائل أبيض لزج. فتحت الثلاجة وأخرجت تنكة كوكاكولا وأرتها لي من بعيد، هززت رأسي متمتما:

« Oui, merci »

عندما فتحت التنكة ، كان رومان قد ملأ ثلاثة أكواب بالشامبانيا. رفع كل واحد منهم كأسه ورفعت تنكتي وشربنا نخب السهرة. أخذ رومان قطعة قنّبيط غمسها في أحد القدحين وشرع يقضم مثل أرنب. بينما دعتنا إيزابيل لنأكل بحركة من يدها. اليد نفسها انتهت بأن انقضت على قطعة جزر، غمستها في القدح المملوء بالسائل الأبيض الذي صار يشبه ماء الجير.

« Elle est bonne cette sauce blanche ! »

هتفت كارول وهي تلتهم بدورها قطعة قنّبيط. شعرت بالحرج. لا أحبّ أن أكون استثناء هذه الليلة، سأبدو سخيفا. يكفي أنني لوحدي أشرب كوكاكولا... سلّمت أمري لله وأخذت قطعة جزر صغيرة ثم غمستها في القدح. و لكم كانت دهشتي كبيرة وأنا أستطيب مذاق الجزر (هل لأنني كنت جائعا؟). شجعني ذلك فالتهمت قطعة قنّبيط. كان مذاقها رائعا أيضا، خصوصا مع جرعة كوكاكولا. فكّرت أن الإنسان حقا عدوّ ما يجهل، خصوصا إذا كان جائعا. تذكرت ما كانت تقول لي أمي عندما أرفض أن آكل شيئا: الجوع لا يظلم أحدا، وابتسمت... احتفاء بي، على ما يبدو، شغّلت إيزابيل شريطا موسيقيا عربيا. أحسست أنني مطالب بقول شيء ما. لذلك سألتها:« أهي وردة؟» محاولا تكسير الصمت، ليس إلاّ. طبعا كنت أنتظر منها أن تهزّ رأسها موافقة. لكنها أخجلتني وهي تقول بنبرة معاتبة: "كلا إنها نجاة الصغيرة !" انقضضت على قطعة جزر... نجاة الصغيرة أو نجاة الكبيرة أو حتى نجاة عتابو... كان علي أن أصمت، كان علّي أن أفهم من زمان أن لي أذنا موسيقية سيئة جدا، لا تميّز العيطة من الجاز، عنفت نفسي في حسرة.

19
أغاني الصيادين

العرب مجرد إشاعة مغرضة عبرت العصور، والدليل أننا نحن ضحايا هذه الإشاعة، تفرقنا في العالم نفتش لأنفسنا عن جنسيات جديدة"

ج. لولاش

مازالت تمطر في الخارج!

اليوم عيد الغطّاس. فهمت أخيرا أن إيزابيل دعتنا لنسهر عندها بهذه المناسبة. وها نحن نلتهم حبّات الجزر وقطع القنّبيط نيّئة، بعد أن نغمسها في السائل الأبيض اللزج. كارول وإيزابيل ورومان يحتسون كؤوس الشامبانيا وأنا أعبّ تنكة كوكاكولا مثل طفل... قبل أكثر من ألفـــي سنة، زار الملوك الثلاثة المسيح في مهده وباركوه. بالتازار، غاسبار وميلكيور، هذه أسماؤهم. الفرنسيون لا يخطئون هذا الإحتفال أبدا. ينتظرونه بنفاذ صبر، ليس حبا في المسيح ومن باركوه، بل لكي يلعبوا كعكة الملوك. في كل المحلات التجارية تباع "لاكاليت ديروا"، كعكة بعجين اللوز، صحبة تاج من ورق. ليلة الثالث من يناير يتحلق أفراد العائلة حولها وعيونهم تلمع مثل أطفال. داخل كل كعكة، تختفي حبة

فول. الذي يسعده الحظ ويعثر عليها يستحق التاج والتهاني ويصبح ملكا. ملك من ورق! لو عاد الملوك الثلاثة اليوم إلى الحياة لرموا تيجانهم في سطل قمامة. لكم ستكون صدمتهم كبيرة وهم يرون الأحفاد يتحولون إلى عصابة صبيان، يسيل لعابهم حول كعكة. كعكة وتاج من ورق، هذا كل ما تبقى من عيد الغطاس يا سادتي الملوك! أعتقد أن ثمة تقليدا مماثلا يقام في إحدى المناسبات الدينية ببعض المناطق المغربية. لا أعرف متى ولا أين ولا لماذا، لذلك لم أرد أن أثير هذا الموضوع. لا أحب أن أرتمي في المسابح بلا تبّان، خصوصا بعد حماقة الشريط الموسيقي!

وجدت رومان في غاية اللطافة. كذّب كل تكهناتي الوقحة. انتابني إحساس بالذنب لأنني خمّنت للحظات بأنه عنصري. حدّثني طويلا عن عيد الغطاس وكيف يحتفلون به في مسقط رأسه لابروتاني. كان يحتسي كأسا تلو كأس، وينتقل من موضوع لآخر. قال إنه قضى سنة كاملة يعمل في إسبانيا، وأن اسمه الثاني هو "عمار"، ولا يعرف لماذا سمّاه والداه كذلك. أضاف أنه يتعاطف مع الفلسطينيين، ليس بسبب اسمه الغريب، بل لأنهم ضحايا العصر. أردف أنه لا يفهم لماذا يضيّع العرب أموالهم في فنادق الشانزيليزي ولايصنعون شيئا من أجل هذا الشعب. ضحكت، وكدت أقول له إن العرب مجرد إشاعة سخيفة عبرت العصور. وأنهم لم يوجدوا قط. والدليل أننا اليوم، نحن ضحايا هذه الإشاعة المغرضة، تفرقنا في العالم نفتش لأنفسنا عن جنسيات جديدة. وفلسطين مثلنا تماما، لو لم يشع بين الناس أنها عربية لما كانت هناك قضية ولا هم يحزنون، ولوجد العالم تسوية للنزاع منذ زمن بعيد. حين شرع رومان يتحدث عن لهجة لابروتاني نهض من مكانه. أسكت نجاة الصغيرة ووضع شريطا به أغاني بروتانية. الأغاني كانت جميلة وحزينة، تشبه ابتهالات دينية. طمأنني أنه

مثلي تماما لا يفهم شيئا في البروتانية، لكنه استطرد قائلا إن الأغاني تدور دائما حول الأمواج ومراكب الصيد، وتحكي حزن نساء ينتظرن صيّادين نزلوا إلى البحر ولم يعودوا. قال رومان إن عدد الذين يتكلمون اللهجة البروتانية محدود جدا وكلهم أشخاص في نهايات العمر، ممّا يعني أنها لهجة آيلة للإنقراض، وذلك أحسن. عبّرت له عن دهشتي بأن أسمع كلاما مماثلا من فم بروتاني قحّ. ردّ بأن غالبية البروتانيين يفكرون مثله. ماذا سوف نجني من لهجة ميّتة غير التفرقة والعنصرية؟ أنظر ما يحدث في إسبانيا بسبب ذلك. اليوم في برشلونة إذا لم تكن تتحدث الكاتالانية يستحيل أن تعثر على عمل، ستعيش على الهامش كأيّ منبوذ. لقد رأيت بعيني كيف يتحول الإسبان القادمون من الجنوب إلى أجانب في بلدهم. نحن الفرنسيون قوتنا في وحدة لغتنا. قلت له إن غالبية الأمازيغيين في المغرب والجزائر لا يفكرون على هذا النحو!

إيزابيل بدت سعيدة جدا لأنها ربحت التاج، رغم أنه من ورق. قبل ذلك، اختبأت تحت الطاولة، بينما انهمكت كارول في تقسيم الكعكة إلى أربع قطع شبه متساوية. وبدأنا نصيح لمن هذه القطعة وتردّ إيزابيل كل مرة لفلان، تماما كالأطفال. عندما شرعنا في التهام قطع الكعكة، عثرت إيزابيل على فولة الملك. كان اليوم جمعة، لذلك لم تكن لدي طموحات في التاج، ببساطة لأن حظي يكون عاثرا نهارات الجمعة. التاج الورقي فوق شعر إيزابيل الأصفر جعلها تبدو مثل ملكة حقيقية. حدثتنا فجأة عن اليمن. قالت إنه بلد رائع رغم البؤس والفقر الذي يتجول معك من شارع لشارع، ومن وجه لوجه. أضافت أنها ستعود إليه بعد شهر. سألتها كارول بمكر: "أحقا تعودين هناك فقط لأن البلد رائع؟" ابتسمت الملكة وقالت: "أعود أولا لأكمل بحثي الجامعي، وثانيا لأرى بيوت صنعاء القديمة..." صاحت كارول: " وثالثا؟"، "لأخزن القات"، ردت

إيزابيل ضاحكة، وانبعث من عينيها شعاع غريب: ضوء الحب... أعرف أن إيزابيل في رحلاتها المتكررة إلى مصر من أجل إنجاز بحث دراسات معمقة في التاريخ، سقطت في شباك شاب يمني. حكت لي ذلك كارول وقالت إنها مجنونة، تتحدث إليه كل يوم ساعة في الهاتف. أنظر إلى إيزابيل فيثيرني البريق. كانت معنا تتحدث وتضحك، لكنها بدت شاردة وبعيدة جدا. لا أعرف لماذا تذكرت فجأة هند. لماذا عادت إلى ذهني تفاصيل مؤلمة مضت عليها عدّة سنوات. ربما لأنني خسرتها إلى الأبد ذات جمعة ... كنّا في الرباط. ذاهبين إلى مقهى اسمه هوليود. أوخارجين منه على الأرجح بعد أن أنهينا نقاشنا بشجار. لحقت بها أمام المقهى بعد أن نهضت وغادرتني. صرخت فيها غير آبه بفضول الجالسين. حين توقفت. دنوت منها. رفعت كفي عاليا في الهواء وهويت بقوة على خدها الأيسر. لكي تكون الصفعة آخر لقطة في الفيلم الرومانسي الذي بدأنا تصويره قبل ثلاث سنوات. صفعتها بخبرة مجرم قديم: في صباي كنت كلما صادفت خديجة بنت الجيران، أرفع كفّي عاليا في السماء وأهوي على خدها البضّ. بعد ذلك ترتسم مكان الصفعة حبّة طماطم رائعة، سرعان ما يسقيها خيط دمع ساخن. بلا سبب واضح ظللت سنينا أتدرب على الصفع فوق خدّ خديجة الطريّ. عندما صارت تقتسم معي نفس الطاولة في المدرسة، كففت عن ذلك. كنت قد عثرت على خد آخر أكثر نعومة وأشد حمرة: خد أختي الصغيرة. لنفس السبب الغامض، كنت أرفع كفي عاليا في السماء وأهوي على خد المسكينة، ثم أفر خارج البيت كمحارب جبان... مضيت بعد ذلك. لا بل تمتمت ببضع كلمات بذيئة ثم مشيت. ظلت هند تضع كفَها على الخد الأحمر وعيناها ساهمتان من هول الصدمة. خيّل إلي أنني لمحت جدولا صغيرا من الدمع ينسكب من إحداهما. ذهبت بعد ذلك، بل عدت للمقهى ونظرات الجالسين تجلدني بلا

رحمة. كنت قد نسيت مطريتي جنب المائدة. السماء كانت مخاتلة ذلك الجمعة، ملبدة، تنذر بمطر غزير. مطر متعجرف ووقح على كل حال، لأنه تأخر كثيرا، وفي النهاية أخلف موعده، سحب قطراته القليلة وانصرف... انصرفت أنا أيضا. لا أذكر الآن إلى أين. لكنني أذكر جيدا أنني بقيت مدة طويلة أتألم مثل أرنب مذبوح. كنا في نفس الفصل الدراسي. أراها فتدق أجراس مربكة في صدري، ويقفز قلبي من مكانه. يصرخ وأنا أزجره وأحبط نبضاته بوحشية. لم يكن ذلك سهلا. كل صباح ننظر إلى بعضنا البعض كما ينظر الملاكم إلى خصمه، دونما تحية، بينما زملاؤنا ينظرون بإشفاق وشماتة ومكر ويتهامسون... أصبح العام يبدو لي مسيّجا بجدران تزداد علوا يوما عن يوم. صرت أحيا "فصلا في الجحيم"، بعذابات لم تخطر على بال رامبو. لم يكن سهلا أن أنسى كل شيء. كنت قد أدمنت على حبّها. على احتضان يديها الرائعتين كل صباح. على احتساء قهوة المساء رفقتها. على قضاء نزهات طويلة في عينيها. والتسكع معها في شوارع العاصمة، متعانقين، غير مكترثين بالوقت وبنظرات الفضوليين. فرحين، كما لو كنا نمشي في قصيدة لا تنتهي... جميع الأشياء الجميلة التي ملكت في حياتي، خسرتها أيام جمعة متفرقة. أكره هذا اليوم الذي يخطف كل مرة شيئا ثمينا ويمضي...

عندما أشرع في شتم أيام الجمعة، أعرف أن حالتي النفسية باتت صعبة، علي أن أفتش عن حل لمشاكلي. الجميع يشرب ويدخن ويضحك، وأنا لم أعد أرى سوى البريق الذي يتلألأ في عيني إيزابيل. صار الآن يشبه حزمة ضوء، لاحقته وهو يخترق النافذة ويفتح طريقا في الظلام. الأغاني البروتانية حزينة ومؤلمة. مازالت تمطر بلا توقف في الخارج.

20
كوكب القرود

"لقد تغير المغرب: تركت الناس داخل الأقفاص ووجدتهم خارجها... لكنهم مازالوا ينطّون!"

ج. لولاش

لماذا رجعت؟

الرباط. صباح بلا طعم. جمعة جبان كسائر جمعات العاصمة. سماء رمادية خفيضة كأنها تفكر في السقوط. ومدينة بالأبيض والأسود تقذفني بوابل من التذكارات: كل رصيف بذكرى، كل حديقة بوجه، وكل مقهى بألم... عاد شتنبر ليضبطني من جديد موزّعا بين المقاهي والشوارع والحسرات. المارة متعبون كأنهم قضوا ليلتهم في مشي مسافات طويلة. مطرقون كما لو كانوا غير معنيين بما حولهم. يفكرون في شجارات مؤلمة، أو مواعيد مصيرية، أو جغرافيات بعيدة على حدود الوهم... في أشياء غير سارة على كل حال. غريب أمر الناس في هذه البلاد: عندما تتأمل وجوههم بعد غيبة طويلة، يعطونك الانطباع بأنهم مجرّد عابرين، كأن صدفة طائشة قذفت بهم توا إلى هنا. أصبحت البلاد تشبه محطة قطار كبيرة أو بهوا شاسعا في مطار. كأن المغاربة كلهم باتوا مقتنعين أنهم قدموا إلى هذه الأرض من أماكن أخرى، وهم هنا مؤقتا في انتظار الذهاب.... لكن إلى أين؟ لا أحد يعرف.

لماذا رجعت؟

هل سأقضي عمري كله بين الذهاب والمجيء، مشردا بين القطارات والخيبات والعواصم، لامسكن لي إلا حذائي؟ لماذا رجعت إلى هذه المدينة السخيفة الملأى بالمساحيق الرخيصة والابتسامات الصفراء والإدارات الفاسدة التي يديرها لصوص ببذلات أنيقة وربطات عنق؟ الرباط مدينة المنافقين. إذا استثنيت أحزمتها البائسة، لا يسكن في هذه المدينة إلا أغنياء قذرون، نهبوا صناديق الدولة وأحلام الشعب وجلسوا يتفرجون على بؤسه من شرفات وحدائق فيلات فسيحة. يسكنها أيضا فقراء سابقون، صعدوا من الحضيض وغيّروا جلدتهم. فقراء بمصائر مضحكة، قدّموا نقدا ذاتيا على ماض غير مشرف. معظمهم كانوا طلابا نجباء، ابتسم لهم الحظ بعد الباكالوريا فانتسبوا للمدرسة المحمدية أو لمعاهد البريد والطب والتدبير والزراعة والصيدلة والإحصاء والمعلوميات... أوسواها من مؤسسات المحظوظين التي تنتشل كل عام حفنة من البدو، وتشتتهم على أطراف الرباط ليزاحموا سكان العاصمة، ثم عاد الحظ ليبتسم لهم مرة أخرى ويمنحهم مناصب وكراس في مقاولات أو وزارات وإدارات ميتة. بذلك أفلتوا من قبضة مدن وقرى معطلة، نسيتها الدولة مهملة على أقدام الجبال وقممها، وفي الخرائط ونشرات الأخبار التي لا يشاهدها أحد. ومثل الدولة، نسوا هم أيضا أصولهم وقراهم النائية، قلبوا صفحاتها إلى الأبد. بعضهم تسلق سلالم الثروة والنفوذ. آخرون اكتفوا بالصعود أعلى قليلا من الحضيض حيث كانوا، لكن ذلك وحده ليس كافيا لكي تحصل على بطاقة العضوية في نادي "مسلمين الرباط"، كما يلقّبون. إذا لم تولد في السويسي أو أكدال وأردت أن تستحق مكانك بين المسلمين، ما عليك إلا أن تتحول إلى لصّ خطير يحترمه الجميع. أو تقوم

بتداريب غريبة، تشبه ما يخضع له القرد عادة لكي يقدّم عرضا ناجحا وسط حلقة من الفضوليين!

عندما طرد المسلمون نهائيا من الأندلس سنة 1609 بقرار من الملك فيليب الثالث، حط الكثير منهم رحاله في الرباط وسلا، واستولوا على قصبة الأوداية. كانوا يسمّون "الموريسكيون". ولأن العربية خذلت لسانهم بعد أكثر من قرن على نهاية حكم المسلمين في غرناطة، ولأن طقوس عباداتهم صارت غريبة جرّاء ما تعرضوا له من إرهاب على يد محاكم التفتيش، فقد اعتبرهم المغاربة مجرد نصارى ضالّين. كانوا يلقون القبض على كل من يصادفونه خارج القصبة، ويبيعونه في حي القناصل، بسوق الزرابي الذي كان سوقا للعبيد، تماما كما يفعلون بالأسرى من قوم عيسى. أظهر الموريسكيون مواهب خطيرة في القرصنة البحرية وفي المناورة والمخاتلة. كانوا مستعدين للتحالف مع الإنجليز أوالهولنديين أوالإسبان... وحتى مع الشيطان، لكي يرجعوا إلى ديارهم التي سلبها منهم فيليب الثالث! أحيانا كثيرة ضد إخوتهم المسلمين: ضد سلطان مراكش، وضد القائد العياشي الذي أعلن الجهاد على البرتغاليين من المعمورة. لذلك دخل الموريسكيون في مشاحنات مستمرة مع المغاربة، دامت عقودا طويلة، وظلوا يتوارثون مفاتيح بيوتهم في الأندلس ويهدهدون حلم العودة إلى فردوس الجدود. لم يعرفوا أن التاريخ خنزير بري لا يلتفت وراءه أبدا، ولم يصدقوا أن *لكل شيء إذا ماتمّ نقصان"* ولا كل قصائد الرثاء الطويلة. وضعوا آمالهم على موج البحر، وتركوا محرك العودة يقود زوارقهم وتحالفاتهم. كانوا قد تدربوا جيدا على التقية وإخفاء إسلامهم، خوفا من محاكم التفتيش الرهيبة. في المغرب، واصلوا إسلامهم المخاتل. كانوا يسرّون للإنجليز بأنهم نصارى حقيقيون ظلمهم الإسبان،

لعلهم يحظون بعطفهم ويساعدونهم على الرجوع. المغاربة الذين لم يفهموا كيف يمكن للزمن الكلب أن يجعل مسلما يتاجر بدينه، اعتبروا الموريسكيين مجرد مسيحيين، أو منافقين في أحسن الفروض، ولكي يميّزونهم عن بقيّة المغاربة، أطلقوا عليهم بتهكم "مسلمين الرباط". بعد عشرات السنين والأحلام والمناورات، فشلت مشاريع الموريسكيين في العودة إلى الأندلس، واختفوا في ثقب التاريخ السوداء إلى الأبد، لكنهم تركوا لسكان الرباط هذه التسمية التهكمية، كتذكار ملْتبس لعبور متوتّر.

"مسلمين الرباط" اليوم، أكثر خسّة من جدودهم. الموريسكيون، على الأقل، ناوروا بدينهم دفاعا عن قضية نبيلة: العودة إلى الديار. أما الأحفاد فيتاجرون اليوم في كل شيء، ويبيعون الزوجات والأمّهات والأولاد والملة والضمير، مقابل كرسي أو حفنة أموال. عصابة أجْلاف استولت على خيرات البلاد وأحلامها، وجلسوا على كراسي وثيرة يحصون الغنائم ويشتمون أبناء الشعب الذين يزحفون على مدينتهم ويشوّهون شوارعها الأنيقة. في الرباط يتجول الاحتقار طليقا في العيون والشوارع والأحياء الراقية. إذا لم يكن مظهرك يعطي الانطباع بأنّك تأكل جيدا، وتشتري ملابسك من محلاّت محترمة، وإذا لم تكن لكنتك تشبه لكنة المسلمين، واسمك لا يوحي بالانتماء إلى شجرة نسب وارفة... لن يكون نصيبك إلا الاحتقار!

لماذا رجعت؟

هنا على الأقل، لا يفرّق الناس بين أبناء البلد الواحد. نصير جميعا مغاربة، مغاربيين، عربا، أجانب... الفرنسيون لايحتقرون أحدا، أو يحتقرون الجميع بلا تمييز. الجلدة السمراء كافية لتوحيد الكل. ينشأ تآلف

غامض بين المهاجرين. أهل القمّة ينزلون مكرهين من أبراجهم، فيما يصعد نزلاء الحضيض قليلا، هكذا يتم اللقاء في منتصف الطريق. في فرنسا، تشبه المدن المغربية بعضها البعض، لذلك لا أحد يتحرج في المجاهرة بانتمائه إلى بلدات صغيرة لا تكاد ترى بالعين المجردة، كما الحال في البلاد. لا حرج في أن تقول لأحدهم بأنّك من بلدة صغيرة وسط المغرب، تدعى حد كورت مثلا، لأنه لن يحتقرك بسبب ذلك. ببساطة، لأن كل المدن المغربية متشابهة ومتخلفة في نظره. وربما وجدته على قدر لا يستهان به من السذاجة التي تجعله يعتقد أن حد كورت تشبه سان طروبي أو كان... وقد يفصح لك عن حلمه بزيارة المغرب ورؤية كل تلك البلدات التي تشبه بلا شك مدن ألف ليلة وليلة: حد كورت، سوق السبت، سوق لاربعا، خميس الزمامرة... وهلمّ أسواقا. هنا في فرنسا، يستردّ المغاربة الفقراء كرامتهم التي طالما جرجرتها في الوحل حفنة متسلطين من أبناء جلدتهم، ولأنهم متعودون على كل أصناف الاحتقار سوف يجدون عيون الفرنسيين متسامحة جدا. لن تؤثر فيهم ندف الثلج التي تتساقط بينهم وبين هؤلاء الآخرين. سيعتبرون النظرات الأوربية الباردة طبيعية تماما. لأنها تذكرهم باختلافهم، ببلادهم، بأصدقائهم، بأمهم وأبيهم وإخوتهم. أمّا أولئك الذين فرضوا على المغرب معاهدة حماية جديدة، منذ 16 نونبر 1956، المستوطنون الجدد، أصحاب البشرة السمراء والأوهام البيضاء، أولئك الذين مازالوا يعتبرون المغرب محافظة فرنسية من محافظات ما وراء البحار، الذين يسبحون بحمد ليوطي في العمل، في البيت، في نادي الفروسية والسباحة والغولف، ويسخرون من هؤلاء المغاربة المتخلفين، هؤلاء الأهالي، لأنهم يتكلمون لغات بربرية ويكتبون بالعربية، ولأنهم يزحفون على أحيائهم الراقية ويشوهون رونقها،

الاستعماريون الجدد الذين يرسلون أولادهم إلى مدارس البعثة، ويمنعونهم من ارتياد الحارات الوسخة، حيث الفقراء الحقراء، الأوربيون المزيفون، الفرنسيون بالتيمم الذين يزورهم في نهاية كل سنة بابا نويل محملا بالهدايا والفرح ويسقط الثلج في بيوتهم فوق أشجار أرز تزينها الشرائط والأضواء... لكم تصدمهم النظرات غير المبالية والكلمات العنصرية التي تشبه لسعات نحل، لا تتحملها بشرتهم البضّة. يكتشفون بغباء أن الفرنسي شخص أبيض، شعره مائل إلى الشقرة، ويحمل جواز سفر أحمر... ولأنّ بشرتهم سوف تبقى سمراء، مهما رطنوا ولبسوا وتنكروا، يجدون أنفسهم ينتظرون في صفوف طويلة مع المغاربة الذين احتقروهم دائما، من طابور لطابور، يقفون حائرين مدّة طويلة قبل أن يكتشفوا، بكثير من المرارة، أن نظرية داروين مجرد هراء، لأن القرد سوف يبقى قردا إلى الأبد!

لماذا رجعت؟

هل اشتقت لرؤية هاته القرود تنطّ خارج الأقفاص؟ هل أصابني حنين إلى هذه البلاد؟ أبلاد حقا هي أم مستودع أموات كبير؟ أوطن أم كوكب سعادين؟... لأعد أدراجي نحو الضوء، نحو الحياة، قبل أن أمّسخ قردا، أو أتحول إلى جثة بين ملايين الجثث المحفوظة بعناية... في انتظار الدفن.

21
نهاية رجل جبان

"يقولون إن إسمي بالعربية معناه
جبان...
أجل أنا جبان: جبان كل وبان!"

ج. لولاش

هل أعود إلى البلاد؟

عندما أتعب، يصل مزاجي إلى الأرض وأفكّر في ذلك. كأنّ شخصا مجهولا أمام آلة غريبة، يدير قرصا صغيرا ببطء، ورويدا رويدا ينتشر الظلام، على إيقاع الدوران. تحاصرني أسئلة وجودية قديمة. أرى الزمن أمامي. رجلا لا عمر له. يحمل سوطا ويجلدني بلا رحمة، فيما قهقهاته تتعالى كأيّ شرير في رسوم متحركة، "شرشبيل" أو وحش "فيكا فيكا" الذي سكن كوابيسنا أيام الطفولة. لا أصرخ. أتحمل السياط في صمت، وأرى كيف تختفي الأضواء. حين تتمكن مني العتمة أفكّر في أشياء مؤلمة، في ذكريات بعيدة، ويعود ذلك الطفل الصغير الذي يحمل لوحا خشبيا ويجري نحو الكتّاب، وسط الضباب في بلدة نائية. المطر يسقط وهو يجري كي يصل في الموعد. يحرك قدميه الصغيرتين بخفة، وفجأة يمسح أنفه فتتبلل يده بالدم... يعرّج نحو سقاية عمومية، وقطرات الدم توثّق طريقه، يضع رأسه تحت الصنبور، الماء البارد يصفع جبهته الصغيرة، عمره خمس سنوات وينتظر أن يتوقّف النزيف... لن يتوقف النزيف أبدا.

هل أعود؟

يصعُب عليك أن تغادر باريس عندما تتعود على حياتها، على صباحاتها الطازجة وأشجارها وحدائقها ومآثرها وتماثيلها ولياليها الصاخبة والباردة والدافئة. حتّى إذا كنت تعيش على الهامش، على الرصيف، على الحافة، في الشارع... تفضّل ذلك على العودة إلى المجهول الذي يسمّونه "البلاد". لأنك، حتى وأنت بلا عمل وبلا مسكن وبلا أوراق، تستطيع أن تشارك في الحياة، من هامشك ومن حضيضك، الحياة الحقيقية التلقائية الحديثة، حياة البشر في القرن الواحد والعشرين. في المغرب، تستطيع فقط أن تتفرّج على هذه الحياة، عبر التلفزيون والأفلام السينمائية والجرائد والكتب وأقراص الديفيدي، وفي وجوه السياح الأجانب الذين قد تصادفهم يتمتعون بشمس البلاد الرخيصة. قدر الذين يسكنون في دول من نهايات العصر الوسيط أن يتفرّجوا على العصر. ساكنة البلدان الغنية تعيش وأنتم تنظرون وتضيعون في استيهامات بلا نهاية. الناس هنا لا يعبأون بالمظاهر، لأنهم منشغلون بأشياء أعمق. أنتم همّكم الأول أن تقنعوا أنفسكم وتقنعوا العالم بأنكم لستم جثثا تنتظر حفّار قبور، لذلك تبالغون في الاعتناء بالمظاهر واللباس وتلوّنون كلامكم بكذب من كل الألوان. تعلّقون صحونا مقعّرة فوق سقف "ديمانتيت"، لكي تصطادوا قليلا من الحياة. طوال النهار، تتماهون مع ما تتفرجون فيه، كي تنسوا أنكم تعيشون في الوحل مثل صراصير. تعتقدون أنّ الحياة هكذا. ولكم أنتم مخطئون.

هنا على الأقل، تستطيع أن تفهم كلّ تلك التناقضات. وهي لم تعد تعنيني أصلا. لأنني أصبحت فرنسيا وتركت كل شيء ورائي. أفكر فيها

على سبيل الاستئناس لا غير. لقد صار شعري أشقر. أنا الآن مواطن فرنسي. أصبحت أوربيا ككلّ هؤلاء الأوغاد الذين طالما احتقروني ونظروا إليّ شزرا. لن أخجل بعد اليوم من هويّتي. لن أحس بأي نقص وأنا أشهر جواز سفري في مطارات العالم. سألقي بذلك الجواز الأخضر السخيف في سطل قمامة. سأمزقه إلى قطع صغيرة وأرميه في البحر. لا بل سأحتفظ به. سأحوله إلى أجندة أحفظ فيها بعض العناوين والأرقام. سأسجل فيه هواتف كل العاهرات التي ألتقيهنّ، نكاية بالمغرب. حجمه مناسب. أوراقه لا تصلح لغير ذلك. لأنه أخضر ومضحك. ها هو ذا اسمي الجديد على جواز السفر الأحمر ساحر وبرّاق: Gérard Lelache. مدهش هذا التحول الذي يصيبك حين تصبح فرنسيا. تضيع منك كلمات كثيرة بالعربية، دون أسف. بل إنك أحيانا تتلعثم حين تتكلم هذه اللغة المتوحشة. صحيح أنني لست سوى حارسا أمام باب أوشان بلاديفانس، لكنني أتقاضى راتبا محترما. وعندما يكون الجو لطيفا نهارات السبت والأحد، أركب دراجتي الهوائية وأذهب لحدائق الليكسومبورغ كي أتمتع بالشمس. يا للحياة. لم أعد أتذكر تحديدا في أي قارّة يوجد المغرب... لم يعد يربطني بكم الآن أيّ شيء يا حثالة الشعوب. يا نزلاء الحضيض. أيها المتخلفون الذين يحيون خارج التاريخ والجغرافيا. يا سكّان العالم الثالث. لقد مزّقت ركام الأوهام والذكريات التي في رأسي. فككت الأواصر التي تربطني ببلاد طردتني من مدنها ومن شوارعها من بحارها من سماواتها ومن مستقبلها. البلاد... هاهاها. أبلاد هي أم كعكة تقتسمها شرذمة نصّابين؟ يضحكني أمركم. أنظر إلى بطاقة هويتي الجديدة وأشعر بنشوة كبيرة... كنت مغربيا والآن أقدّم استقالتي من بلادكم.

هل أعود؟

لقد عدت. لقد عدت... أنا المغربي الذي فشل. أرمّم الآن ذاكرتي في أماكن كنت أجلس فيها قبل أن أرحل. في مقاه حقيرة جداً. رفقة أناس أحقر. أصبحت موظّفا بائسا، تتآكل مؤخرته على مكتب مهترئ في وزارة ميّتة. انضممت إلى عصابة التافهين الذين يأتون إلى العمل متأخرين وعابسين ليقرأوا الجريدة، في انتظار وقت الخروج. لم أكن أتوقع أن أحصد في النهاية كل هذه الحقول من الرماد. لم أكن أعرف أنني سأنتهي على هذا النحو. أنا الذي طالما ضحكت من هؤلاء الأغبياء، الذين يلبسون ربطات عنق ويحنون رؤوسهم أمام المدير ورئيس القسم ورئيس المصلحة. "الناس" الذين لا همّ لهم سوى إحصاء السلالم والأدراج وترقّب الراتب الذي يتقدم ببطء كأيّ سلحفاة، وعندما يصلون نهايات السلّم، يكون الشيب قد اشتعل في الرأس والإنهاك تمكّن من الجسد وتكون الحياة قد انفلتت بمكر من يديك ومن أحلامك، كأي عاهرة محتالة. تكتشف أنك بدّدت عمرك على كرسي في مكتب كئيب، ولم يبق في رصيدك إلا قيلولة صغيرة وأكوابا لبلع أقراص ضدّ وجع الرأس وتعب المفاصل واختناق الصدر ومغص المعدة وانتفاخ الأمعاء... تكون قد حجزت تذكرة الذهاب، وجلست تنتظر في قاعة مظلمة.

صعدت من الحضيض ورأيت الحياة ثم رجعت مفلسا. الناس يعودون من فرنسا محمّلين بالحقائب والعملة الصعبة، وأنا رجعت أحمل ركاما من الهزائم والخيبات، عدت من رحلتي كما يعود من غرق به مركب في بحار بعيدة وفقد كل شيء. المغرب بلادي الآن. صار وجهي أسمر من كثرة الشمس والكذب. عندما أنظر إلى صوري التي التقطتها في الضفة الأخرى لا أعرفني. أجدني شخصا آخر تماما لم يعد له وجود. رجعت كتاجر في رواية قديمة جرف البحر كل ما يملك. لكنّ أحلامي ما تزال مشتعلة كمصابيح البلدية. طموحاتي عنيدة مثل مدرسة من الأطفال الأشقياء. قلبي بيلدوزير يدهس كل من يقف أمامه. يداي

مطرقتان وسأهدّم الجبال التي تنتصب في وجهي. سأصبح محتالا أكثر وأكثر لكي أنجح. لكي أعيش مرتاحا في هذه البلاد الملأى باللصوص. عليّ أن أتعلّم الكذب من جديد، أن أتعلّم إخلاف المواعيد، وأدرّب وجهي على ابتسامات من كل الألوان. أن أكذب أكثر من أربعة وعشرين ساعة في اليوم. أن ألبس أكثر من مائة قناع في الساعة. أن ألعب مئة شخصية كل يوم. علي أن أصير وقحا مثل قمامة مرمية في المشور السعيد. أن أتحول إلى نذل مستعد لبيع كرامته وعائلته وأحلامه، لكي يصل. إلى أين؟ لا أعرف، لكن لا بد من الوصول، لأن الجميع في المغرب يريد الوصول.

هل أعود؟

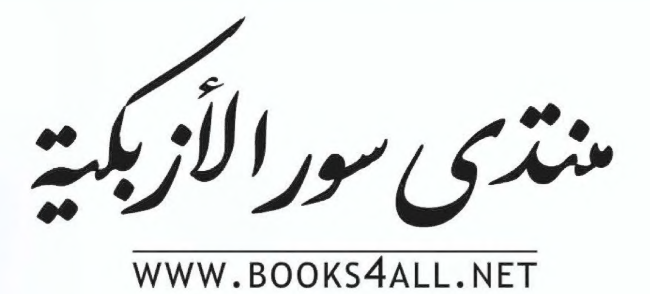
يبدو أنني سافرت أبحث عن الحياة وضيّعت نفسي في الطريق. لست متصوفا أكره التوحّد والتعدّد لكن صدّقوني: ذهبت بمفردي إلى فرنسا وعدت ثلاثة أشخاص متفرّقين. أشعر الآن كما لو أنني شارع مكتظ عن آخره بالمارّة، كأنني مصعد معطّل في طابق أرضي يتزاحم فيه أكثر من شخص، ويتنفسون بسرعة خوفا من نفاذ الهواء. أنا عيسى بن مريم: ثلاثة في واحد... أنا المغربيّ الخائب والفرنسي الجبان ومن يحدّثكم عنهما. لملم الأول حقيبة مملوءة عن آخرها بالأحلام والأوهام ذات أحد، وطار يفتش عن المستقبل في باريس، وبعد أربع سنوات لم يجد شيئا ورجع بخفّي حنين. الثاني باع هويته في مزاد رخيص، ورمى جواز سفره المغربي في سطل قمامة، وأقنع نفسه أنه صار فرنسيا إلى الأبد... وبقيت أنا متردّدا بينهما، أكتب عن هذا التمزق لكي أفهمه، ولكي أفرّق هذه الجوقة المزعجة التي تتصايح داخلي.

باريس – الرباط
2003

Amok Graphic
Tél : 05 37 73 53 09

Walida Edition

Février 2011


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

"هربت من الفهود والنمور ومن السباع والضباع ومن الثعالب والذئاب وبنات آوى، هربت من الأفاعي والعقارب والتماسيح، وودّعت الأكباش والإوزات والبقرات والأرانب والتيوس والحمامات، ولذت بك أيتها الجدة بريجيت، لا تتركيهم ينكلون بي هكذا أرجوك، باسم الدلافين والكونغورو والكوالا، باسم جدّنا الديناصور وجميع الطيور النادرة والحيوانات المهددة بالانقراض، افعلي شيئا من أجلي، أعرف أنك تكرهين الأجانب، العرب على الخصوص. أنا أيضا أكره هؤلاء الوحوش، لأنهم يضربون إخواننا القطط، ويجوعون عشيرتنا من الكلاب، ويقتلون فلذات أكبادنا من الفئران والجرذان والسحليات والصراصير... ناهيك عن مجزرتهم الرهيبة، التي يروح ضحيتها كل عام، الملايين من أصدقائنا الأكباش والحملان البريئة، إنهم وحوش بلا قلب ونحن دجاجات مبللة ترتعش أمام ولاية الشرطة، إجعليهم يحسنون معاملتنا أيتها الجدة الطيبة. النجدة، النجدة. قق قوق قووق. هاو هاو هاو. مياو مياو مياوو..."



جمال بدومة. كاتب وشاعر مغربي من مواليد 1973
صدر له: "الديناصورات تشتم ستيفن سبيلبرغ". شعر 2001
"نظارات بيكيت". شعر 2006

كيف تصبح فرنسيا في خمسة أيام

(ومن دون معلم)